ملف العدد

حسن فتح الباب شاعر المنفى

إعداد : محمود حنفي محمود

تقديم :

تراه قادمًا إليك من بعيد، هاشًا باشًا، خفيض الصوت، يضع قلبه على يده يعرضه عليك وبراءة الأطفال في عينيه، لا يتكلّف ولا يمكر، ولا يناور، ظاهره مثل باطنه يحبُّ كلَّ الناس حتى أعدائه . ولكن رويدك، لا تظنَّ أنه غافلٌ ساذجٌ أمعن النظر في ابتسامته وغضون وجهه، تدرك أن الرجل قد خبَرَ الحياة، وأنه اكتسب من التجارب، مما أداه إلى ما يمكن أن نطلق عليه "حالكمة"، وهي شيء غير براءة الأطفال وإن كان يبدو على صاحبه وجه طفل، يجعل الغير يركن إليه، ويبادله ابتسامًا بابتسام، إنه شيءٌ غير الكتب والأوراق، وإن كان لا يتجاهل الكتب ولا الأوراق، إنه موهبةٌ واكتساب يؤدِّي إلى حالة يصعب تعريفها والإحاطة بها، وإن كنا تأنسوا إليها .

وشعر حسن فتح الباب مثل ظاهره سهلٌ يسيرٌ كأنه أغنيات طفل لا تجد فيه لفظة متقعرة أو متكلّفة أو في غير موضعها أو نابية، ولا تجد فيه معنىً غامضًا، يحول بينك وبين الائتناس به، ولا تجد فيه مصطلحًا أجنبيًا يعسر هضمه . ولكن رويدك أيضًا، فلا تظنَّ أن الرجل سهلٌ سطحه كعمقه إنه مثقفٌ، يعزف الأساطير في الشرق والغرب، ويعايش أعلامًا، مثل ناظم حكمت والمتنبي والمعري وجيفارا وسارتر ولوركا نيتشه ...، ويوظف هذه الثقافة المتنوعة، فيشكل عمقًا تحت السطح، لا يغوص إليه إلا صاحب موهبة في عمق موهبته، أما السوذَّج فيكتفون بالسطح، ويتذوقون اللذة الأولى، ولا يصلون إلى أسرار حسن فتح الباب .

ومثل تلك الحكمة ومثل هذه الحالة من الشعر، لا يأتيان من باب الصدفة، بل إن وراءهما عوامل كثيرة، بعضها يعود إلى الموهبة الإلهية، وبعضها يعود إلى حالةٍ اكتسبها الرجل

بإرادته الصلبة، وبعضها يعود إلى قراءاته العميقة والمتنوعة، وبعضها يعود إلى خبرته في الحياة ومخالطته لأطياف كثيرة من البشر، وفوق كل ذلك يعود إلى تركيبة الإنسان المصري، الذي يصبر ويتحمَّل، ويغالب التحديات، حتى يصل إلى ما يريد، وابتسامة الظفر تراود شفتيه، دون شكوى أو إهدار كرامة .

وقد وصل حسن فتح الباب بعد عمرٍ طويلٍ إلى برّ الأمان، وخلّف وراءه تارخًا طويلاً، لا يقف عند الشعر وحده، بل يضيف إليه كتبًا في النقد، وأوراقًا في السيرة الذاتية وفي أدب الرحلات، ومسرحيات شعرية، ومؤلفات في الحضارة الإسلامية، وفي كتب القانون . فضلاً عن أنشطته المختلفة في أجهزة الإعلام، وفي المؤتمرات والندوات، وفي الحوارات الأدبية، وفوق مدرجات الجامعات . ومع كل هذا العطاء المتنوع، لا يزال الرجل متواضعًا يَقْدُم إليك هاشًا باشًا يضع قلبه فوق يده، يعرضه عليك وبراءة الأطفال في عينيه .

ومن أجل كل هذا العطاء المستمر، رأت مجلة الوسطية أن تقيم ملفًا حول "حسن فتح الباب شاعر المنفى" وأسندت إلى الباحث محمود حنفي محمود إعداد هذا الملف، فأقبل على عمله بسعادة لسببين :

ويتمثل السبب الأول في أن الباحث مولع بشعر حسن فتح الباب، وقد عايش هذا الشعر كثيراً، هو لم يقف عند السطح الظاهري والمستوى الأول، بل توغل إلى ما وراء السطح، فأفضى له بأسراره وحدثت ألفة تكاد تصل إلى حد التوحُّد بين المريد والشيخ، عبَّر عنها الباحث بقصيدة تكاد تلخّص مسيرة حسن فتح الباب يقول في مطلعها :

وَجْهٌ بريءٌ طَلَّ مُشْرِقًا على رُبى الوَطَنْ
وَجْهٌ بريءٌ يُشْرق الإصْباحَ من نافذة الزَّمنْ
وَجْهٌ يُشَعْشِعُ الضياءَ والحَنينْ
وَجْهٌ يرقْرقُ الحياةَ والسَّكنْ
"بردًا وسلامًا" أتيْتَ يا "حَسَنْ"

أما السبب الثاني فهو نتيجة للسبب الأول . إن حبَّ الباحث للشاعر دفعه إلى أن يختار طريقه في الدراسات الجامعية حول حسن فتح الباب تحت عنوان "حسن فتح الباب شاعر المنفى"، وشعر المنفى هو مِفتاح شخصية حسن فتح الباب، إنه الباب الكبير الذي تتفرع منه أبواب عديدة، وإن كنت اقترح على الباحث أن يضيف إلى عنوان رسالته كلمة واحدة ليصبح العنوان "حسن فتح الباب شاعر المنفى والغربة"، وبذلك يكون مصطلح شعر المنفى مختصًا بعذابات الشاعر خارج وطنه، ويكون مصطلح شعر الغربة مختصًا بالاغتراب الذي يلاقيه الأديب الحسَّاس بين بني وطنه .

إن الباحث قد توافرت له ميزتان، أولهما تذوقه لشعر حسن فتح الباب، أما الأخرى فهي مختصَّة بقدرته العقلية على تحليل شعر حسن فتح الباب وبين الذوق والعلم جاء هذا الملف ليدور حول المحاور الآتية :

- ان عنوان المحور الأول "إضاءات حول الشاعر" وفيه قدَّم الباحث وصفًا لتاريخ حياة حسن فتح الباب . كشف فيه عن مؤلفاته ودواوينه وجوائزه وغير ذلك، مما يلقي إضاءة حول الشاعر، تفيد القارئ في الاقتراب من عالم حسن فتح الباب .

- والمحور الثاني كان عبارة عن حوار مع الشاعر الكبير، كانت الأسئلة موجَّة من عارفٍ بعالم حسن فتح الباب، ومن هنا تناولت آراءه النقدية وحياته في القاهرة أو في الريف أو في الجزائر، وحامت أيضًا حول مميزات شعره وخصائص لغته، وكانت الإجابة من شيخ مُجرِّب له موهبته الشعرية التي أنضجتها الخبرة الحياتية على مدى ما يزيد على خمسين عامًا، ومن هنا لم تأتي أجوبته ذاتية تدور حول طموحات الشاعر المغلقة بل جعلتنا في مواجهة الحرية الأدبية والنقدية وعلاقتها بالتغيرات السياسية في فترة حرجة يصعب الإحاطة بها إلا من مجرِّب كبير.

- وكان المحور الثالث عن شهادات النقاد والأدباء حول شعر حسن فتح الباب، وقد اختار الباحث مجموعةً ممن يعتدّ برأيهم تحت عنوان "قالوا عنه" ، وكان كل أديب يلمس خاصية من خصائص حسن فتح الباب، ولو أمكن للقارئ أن يحيط بهذه الخصائص، فإنه سيكتشف صورةً تقريبية لعالم حسن فتح الباب في أهم مميزاته الشعرية .

- وجاء المحور الرابع تحت عنوان "مختارات شعرية"، انتقى فيه الباحث بحساسية شديدة نماذج معبِّرة من شعر حسن فتح الباب، ولم يقدمها صماءَ لا تبين بل أخذ يعلق عليها ويحللها ويكشف عن أسرارها .

- وكانت ثمرة ذلك كله قصيدة أبدعها الباحث تحت عنوان "ثلاثية المنفى"، لخَّصتْ عالم حسن فتح الباب ولكن في معادلة فنية . إن ثلاثية المنفى تعني أولاً غربة الشاعر في طفولته بعد أن فَقَدَ والده، وتعني ثانيًا تعرُّضه لاضطهاد السلطة التي نفته إلى الريف، وتعني ثالثًا الغربة التي ترك فيها الشاعر وطنه مصر إلى الجزائر لكي يشفى من عذاباته، وتنتهي القصيدة بعنوان "أصوات متألمة" تدل على حس درامي عند الباحث، فهذه الأصوات تشبه جوقة "كورس" في مسرحية تقدم ملامح الشاعر الفنية من خلال الإشارة إلى دواوينه .

- ويبقى مسك الختام ممثلاً في المقالة التي كتبها الدكتور صلاح السّروي . ولعلّي لا أبالغ لو زعمت بأن هذه المقالة، تعادل في أهميتها الملف كله، ولو لجأت إلى لغة الامتحانات والمدرسين لقلت : إن هذه المقالة تستحق ٥٠٪ وإن الملف يساوي ٥٠٪، وتكون الحصيلة النهائية ١٠٠٪ لصالح الشاعر الكبير الأستاذ الدكتور حسن فتح الباب حسن.

عبد الحميد إبراهيم

إضاءات حول الشاعـــر

- الشاعر الدكتور/ "حسن فتح الباب حسن" يعود بجذوره الأولى إلى بلدة "منسافيس" بالمنيا.

- من أبناء حارة المجدلي بحيّ شبرا الذي أنجب عديداً من العباقرة العظام مثل الراحل د. جمال حمدان .

- اقترن برفيقة حياته السيدة/ ابتسام يوسف أستاذة الموسيقى وله ثلاثة أبناء أصغرهم الناقد والقاصة منار فتح الباب .

- بعد حصوله على الثانوية العامة، التحق بكلية الآداب عام ١٩٤٢م، ولكنه لم يجد فيها شيئًا جديداً يرضي نفسه الطواقة، فتحول إلى كلية الحقوق بعدما قضى عامًا واحداً في الآداب؛ وذلك لكي يجمع بين الأدب والحقوق مثل الدكتور محمد مندور .

- حصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٤٧م، كما حصل على الماجستير في العلوم السياسية عام ١٩٦٠م، وأكمل رحلته التعليمية بحصوله على درجة الدكتوراه في القانون عام ١٩٧٦م من جامعة القاهرة .

- عَمِل بعد تخرجه من الحقوق في وظيفة معاون إدارة، فلما قامت ثورة يولية عام ١٩٥٢م ألغيتْ تلك الوظيفة، وتمّ دمج معاوني الإدارة بسلك الضباط بعد قضاء عام كامل في كلية الشرطة . وهكذا أصبح الشاعر ضابطًا بين عشية وضحاها مما كان له أبلغ الأثر على شعره.

- عَمِل في القاهرة أولاً، لكن سرعان ما فضحته أشعاره التي تنمُّ عن طابعه الإنساني المنحاز إلى البسطاء والكادحين، فتوجس القادة منه خيفةً فتم إقصاؤه (نفيه) إلى الأقاليم . وظل يعمل في سلك الشرطة حتى تقلد منصب مدير القضاء العسكري بوزارة الداخلية، ثم أحيل إلى المعاش بعد ترقيته إلى رتبة لواء .

- عَمِل أثناء الوظيفة وبعدها أستاذاً جامعيًا في مجال تخصصه .

- بسبب انضمامه إلى صفوف الكادحين والمقهورين والدفاع عنهم، تم إدراج اسمه في قائمة المغضوب عليهم من قبل المباحث العامة "مباحث أمن الدولة" . وفي عام ١٩٧٧م عندما ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ بحث عن أرضٍ جديدة، فاتخذ من الجزائر منفًى اختياريًا قضى فيه عشر سنوات كانت حافلة بالإبداع الشعري . كذلك أسهم من خلال كتاباته وأشعاره ومحاضراته في حركة التعريب وفي النهضة الثقافية والأدبية في الجزائر، كما اختير عضواً منتسبًا باتحاد الكتّاب الجزائريين .

المسيرة الأدبية :

- بدأ مسيرته الأدبية في الأربعينيات من القرن العشرين، ونشر نتاجه في معظم المجلات والصحف والإذاعات المصرية والعربية، لذلك فهو يعد من رواد حركة الشعر الحر (التفعيلي) في مصر والعالم العربي الذين أسسوا البنية الجديدة للقصيدة الحديثة .

- بدأ مسيرته الشعرية رومانسيًا، عبّر خلال مسيرته عن هموم الإنسان وعذاباته، كذلك تتبلور في قصائده رؤيته للقضايا الوطنية والقومية وآمال الشعوب في سبيل عالم أفضل، واعتبره النقاد من كبار شعراء المقاومة في العالم العربية .

- كان الأول في مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية، وقد أشاد بموهبته العميد طه حسين والأستاذ أحمد أمين في هذه المسابقة .

- عضو اتحاد الكتّاب بمصر وجمعية الأدباء .

- عضو سابق بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة .

- كتب كثيرٌ من النقاد المصريين والعرب دراسات ضافية عن إبداعه الشعري .

- اتخذ بعضُ الباحثين شعرَه موضوعًا لأطروحاتهم الجامعية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه .

- خصَّه اتحاد الكُتّاب العرب بملف عن حياته وإبداعه في سلسلة الأعلام، وكذلك مجلة الثقافة الجديدة ومجلة أدب ونقد .

- مُحكّم في مسابقات قصور الثقافة، واتحاد الكتّاب ودولة الإمارات، كذلك شارك في تقديم المواهب الشابة في مجالات الإبداع المختلفة في برنامج "مع الأدباء الشبان"، وأيضًا "كتابات جديدة" .

- رأس مؤتمرات أدبية ومهرجانات ثقافية وشارك في الكثير منها في مصر والعالم العربي .

- تُرْجِمَتْ كثير من قصائده إلى عدة لغات : (الإنجليزية، الإسبانية، الروسية، اليوغوسلافية، والإيطالية) .

- أصدرت هيئة الكتاب مجلدين من أعماله الكاملة عام ١٩٩٨م .

المؤلفات : (ما يزيد على خمسين مؤلَّفًا حتى الآن)

- له ما يزيد على عشرين ديوانًا . منها "من وحي بورسعيد عام ١٩٥٧م)، "فارس الأمل عام ١٩٦٥م" ، و "مدينة الدُّخان والدُّمى عام ١٩٦٧م" و "حبنا أقوى من الموت عام ١٩٧٥" ، "وردة كنت في النيل خبأتها عام ١٩٨٦م" ، و "مواويل النيل المهاجر عام ١٩٨٧م" ، و"أحداق الجياد عام ١٩٩٠م) ، وكان آخر دواوينه "على سُلّم من هشيم الرياح عام ٢٠٠٦م" ، و "شجرة ورد خلف الشط الآخر ٢٠٠٨م" .

- وله ثلاث مسرحيات شعرية، طُبع منها مسرحية "محاكمة الزائر الغريب"، هيئة الكتاب عام ١٩٩٧م .

- وله كتابان في السيرة الذاتية وكتاب في أدب الرحلة .

- له عشرة كتب في النقد الأدبي .
- له مجموعة من المؤلفات حول "تاريخ الإسلام عقيدة وحضارة" .
- له مؤلفات أخرى في مجال تخصصه تدور حول القانون الدولي .
- كتب عشرات الدراسات ومئات المقالات خلال خمسين عامًا من الكتابة والإبداع .

الجوائـــز :

- فاز بجائزة المجلس الأعلى للآداب والفنون بالاشتراك مع وزارة الثقافة سنة ١٩٧٥م عن ديوان "حبنا أقوى من الموت" المستوحى من ملحمة أكتوبر .
- فاز بجائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري سنة ١٩٩٢م عن ديوان "أحداق الجياد" .
- منحه اتحاد الكتاب العرب جائزة القدس في أكتوبر عام ٢٠٠١م .
- رشحه اتحاد الكتّاب بمصر لجائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠١م .
- منحه اتحاد كتّاب مصر جائزة التميز عام ٢٠٠٧م .

هذا وبعد خمسين عامًا من الإبداع والعطاء لا زال صوت الشاعر حسن فتح الباب يترنّم على قيثارة الشعر في صمت، مثل غيره من المبدعين الحقيقيين، الذين لا يُلقُون بالاً لأجهزة الإعلام، ولا تُلقِي لهم بالاً، لتخلو الساحة لأنصاف الموهوبين، ليعلو صوتهم جهاراً بالجعجعة والثرثرة الجوفاء، يتلوّنون كما تتلوّن الحرباء، فهم كالفرقة الموسيقية يتبعون الميسترو دائمًا في العزف بأنواعه المختلفة ... ، لا ثبات على المبدأ، والله المستعان ...

ويبقى الأمل معقودًا على جيل الشباب من المثقفين والمبدعين لكي يصححوا المسيرة ويقفوا على تاريخها وتحولاتها، يضعوا كلاً في نصابه دون زيف أو نفاق أو محاباة .

حوار مع الشاعر الكبير حسن فتح الباب

الشاعر الكبير حسن فتح الباب، رحلة طويلة من الإبداع المتدفق، كغدير صافٍ، ينهل منه الجميع (القارئ، المبدع، الناقد)، يسعدني أن أجري مع سيادتكم هذا الحوار . ولكنْ يجب الاتفاق أولاً على أن المقام هنا لا يطول لرصد ومناقشة إبداعاتكم الشّعْرية المتعددة، أو القضايا النقدية المثارة، فعدة دقائق لا تكفي لهضم خمسين عامًا من الإبداع .

● **كثر الحديث هذه الأيام عما يعانيه النقد الأدبي من أزمات، فما هي الأزمة الحقيقية التي يواجهها النقد الأدبي حاليًا ؟**

●● في رأيي أن الحركة النقدية الراهنة في حالة مخاض، بمعنى أنها ما زالت جنينية، تحتاج إلى النمو والتطور، حتى تصبح كائنًا قابلاً للحياة، فشتان بين هذه الحالة، وبين الحركة النقدية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي . ولا ننكر أن هناك جهوداً يبذلها بعض المؤهلين للدراسات النقدية، ولكنها جهود فردية لا تشكل حركة واسعة، كما كانت عليه الحال في الفترة التي أشرنا إليها، إذ تميزت بالمساجلات الأدبية بين النقاد بعضهم وبعضه، فلا نزال نحن أدباء وشعراء الأربعينيات والخمسينيات نتذكر المعارك الأدبية، التي نشبت بين مدرسة الديوان (عبد الرحمن شكري - عباس العقاد - عبد القادر المازني)، وبين أنصار مدرسة الرافعي . ولئن كان هنالك بعض التجريح أحيانًا، فإن المحصلة العامة تمثلت في نشأة حركة أدبية، كان لها روادها وتلاميذها، مما ضخ دمًا جديداً بين الأدباء والنقاد .

كما نتذكر "المُلاحاة" بين الدكتور طه حسن، وبين أبناء مدرسة التجديد (محمود سامي البارودي - أحمد شوقي - حافظ إبراهيم) . ونتذكر أيضًا في العَقد السابع من القرن الماضي، المعركة الأدبية التي ثارت بين الدكتور محمد مندور مؤسس نظرية "الأدب للحياة"، وبين الدكتور رشاد رشدي رائد مدرسة "الفن للفن". لقد نشأت مدارس نقدية

جديدة، منذ عشرين عامًا، تمثلت في البنيوية، والسُّريالية، والإسلوبية، وكانت مستوردة من الغرب، إلا أنها لم تتمخض عن نشأة مدرسة نقدية عربية، ولكنها أضافت رؤى جديدة إلى الحركة النقدية .

ومن عوامل الجمود التي أصابت الحركة النقدية بخاصة، والحركة الثقافية بعامة، أن ضعفها أو جمودها انعكاس للأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، في الوقت الحاضر . هذا بالإضافة إلى سطوة وسائل الإعلام الحديثة، وفي مقدمتها التليفزيون، وشبكة الإنترنت، فانصرف كثير من الناس وناشئة الأدب، إلى تلك الوسائل الإعلامية الجديدة . ناهيك عما يعانيه قراء الأدب، من مشاكل اقتصادية تستنفد طاقاتهم، أضف إلى ذلك كثرة عدد المطبوعات الإبداعية، وقلة عدد النقاد وانشغالهم بهمومهم الذاتية والاجتماعية والأكاديمية، مما لا يتيح لهم الوقت الكافي، لمتابعة ما يصدر من أعمال أدبية .

إن الحركة الأدبية تحتاج إلى صحوة، بل ثورة، تنصف الأبنية الزائفة، وتقيم على أنقاضها أبنية سامقة . لقد اختلط الصالح بالطالح، والثمين بالغث، حتى افتقد الجيل الجديد البوصلة التي تهديهم إلى سواء السبيل .

■ ■ ■

● **نستنشق أريج الزهور، ونلمح الخضرة، ونرى المياه تترقرق في شعركم، وتظهر الصورة الشعرية وكأنكم ولدتم في أحضان الريف، وليس في دروب المدينة . فما هو مصدر هذه الصورة ؟**

●● أنا قاهريٌّ بالمولد والنشأة، ولكنَّني زرت الريف، بل عشت في جنباته حينما كنت ضابطًا للشرطة في الأقاليم، فاستأثرت بوجداني وفكري الطبيعة الريفية، فوظفت مفرداتها في قصائدي، واستلهمت منها البراءة والنقاء في أبهى تجلياتها . ولكن

الطبيعة عندي تحولت من المناخ الرومانسي الحالم إلى الواقعية، فكانت مظاهر الطبيعة هي خلفية المشاهد التي صورتها، أما الإنسان الريفيّ فكان بؤرة هذه الصور . لقد صوَّرت الطبيعة الحية، والطبيعة الصامتة، بقصد استلهام ما يخفى على المشاهد من معانٍ وأفكار خبيئة، ومن ثَمَّ امتزجت البيئة عندي بالإنسان، سواءٌ حين صورت الحياة في القرى وفي المدن أيضًا، فالرومانسية عندي تتجلى في الحلم بوطنٍ أجمل، وعالمٍ أفضل، أما الواقعية فهي مستمدة من وقائع الحياة الصاخبة، ومن التناقض الدرامي بين الحقِّ والزيف، والتخلف والتقدم . فنحن في عالم يموج بالصراع بين الأقوياء والضعفاء، ولذلك قلت في إحدى قصائدي :

تـــدفعُ الـــرّيحُ شِـــراعَ الأقْـــويـــاء
ويغـوص الفقراءُ في قرارِ الموجةِ الأولى

وأرى أن مهمة الأديب هي إنارة الواقع، حتى يزيد الإنسان عراقة في إنسانيته، ولا يسقط في مهاوي البؤس واليأس . كما أؤمن أيضًا بمقولة الفيلسوف والأديب الفرنسي[1] "إن مهمة المثقف الأولى هي إزعاج السلطة" ، بمعنى الكشف عن عيوبها، والتحريض متلقي العمل الأدبي والفني على مجابهة الطغيان والفساد .

وكم تشتد حاجتنا في الوقت الحاضر إلى تطبيق هذه النظرية، حتى نخرج من بطن الحوت، وحتى ننجو من الطغيان الذي يكاد يغرقنا . وبعبارة أخرى فأننا في مسيس الحاجة في العودة إلى أدب المقاومة، وأعني المعنى الواسع للمقاومة، فلا يعني هذا محاربة العدو بل كل من يقف في طريق التقدم والنمو .

ولكن شعر المقاومة الذي يقوم على المباشرة والتقريرية لا يخلق شاعراً كبيراً، وإن كان يؤدي وظيفة حين تستعر حرب وطنية . أما الشاعر الكبير فهو يقدم لنا شعراً تتمثل

(١) يقصد الشاعر بذلك : الفيلسوف الوجودي "جان بول سارتر" .

فيه القيم الفنية، ومنها الاستعارة المركبة والرمز والحوار ... وغيرها من الوسائل والأساليب الفنية، لأن الفنون تتجاور وتتحاور، ويصبّ بعضها في بعض، فمثل هذه الفنون والآداب مثل أعضاء الجسد. إن الشعر الحقيقي هو الذي يجمع بين سمو المضمون، وجمال التشكيل، وهو الذي ينجو من الصخب والذي سمّاه شيخ النقاد الدكتور محمد مندور "الشعر المهموس"[1] وضرب مثالاً بشعر المهجر .

■ ■ ■

• يظهر في شعركم توظيف الرمز سواء أكان بسيطًا أو مركبًا، وكذلك الأسطورة، حدِّثنا عن ذلك بصفة عامة، وعن توظيف الرمز والأسطورة في قصيدة "أمسية الشتات البهيج" بصفة خاصة ؟

•• ضرب تقنية الرمز في تراثنا الشعري قديمًا وحديثًا، لأنها مثل المرآة التي تنعكس عليها المشاهد أو الشاشة الفضية . وهي تستل المعنى الخفي للأحياء والأشياء، وتكشف عن المفارقة بين المشهود والخفي، وهذه التقنية أيضًا تتضمن الصورة الفنية، إذ تقوم على التخيل، وقديمًا قال الفيلسوف "ابن عربي" : "لولا الخيال لكنا في عدم" . ولكن الخيال في رأيي إذا لم يكن منبثقًا من تأمل الواقع، فإنه يصبح لغواً أو تزيينًا للواقع .

(١) في كتاب د. محمد مندور "في الميزان" ناقش هذه ا لفكرة باستفاضة، ورأى أن الشعر المصري يعاني ضعفًا، بينما تتجلى في شعر المهجر الصياغة الفنية، والموسيقى الأسرة، الهامسة للقلوب . وفي كتاب "الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث" للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السُحرتي، يرى أن الدكتور مندور اعتمد على الذوق فقط، كذلك يرى أن الموسيقى الهامسة لا تصلح في نواحٍ كثيرة مثل الحماسة والفخر والفرح .. كذلك يرى السحرتي أن فكرة الدكتور مندور ناقصة؛ لأن الموسيقى ليست هي الفيصل، لأن هناك أمراً آخر هو الموسيقى الداخلية وتقارب الحروب أو تباعدها . وقد عرض الدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه "التفسير النفسيّ للأدب" لهذه الفكرة (الموسيقى الداخلية) فأوضح أهميتها واستفاض في ذلك . كذلك يرى السُحرتي أن الشعراء الذين اختارهم د. مندور لا يمثلون القاعدة، كما يرى أنه لم يحط علمًا بكل أشعارهم، ويعرض لذلك باستفاضة مع عرض الأشعار وتحليلها . للزيادة ارجع كتاب السُحرتي المذكور آنفًا ص (١٩٧ - ٢٠٤) .

وتتبع أهمية المخيلة الخصبة من أنها تعوض بشاعة الواقع، وتفسح للإنسان أفقًا مضيئًا يعمل الفنان على تحقيقه . وقد وظفت في كثير من قصائدي الأسطورة أيضًا، بالإضافة إلى الرمز، وهذه الأسطورة قد تكون عربية أو أجنبية، وأذكر أن الدكتور محمد مندور، حينما استمع إلى قصيدتي "دمٌ على البحيرة"، قال : "ترى خصائص الشعر الجديد في قصيدة حسن فتح الباب، إذ تقوم على الدراما والأسطورة لتصوير الواقع" .

فتوظيف الأساطير ليس هو الغاية التي ينشدها الشاعر، وإنما هو إحدى الوسائل الفنية التي تعينه على بث رؤيته وتعميقها . كما وظفت أيضًا في بعض قصائدي القصص القرآنية، كما استخدمت أسلوب التناص بين شعري وأشعار أو مقولات الفلاسفة والمبدعين الكبار، والتناص أوسع أفقًا من "التضمين"، بشرط أن يصل الماضي بالحاضر، بمعنى أن تكون عين الشاعر مُبْصرة لما يدور حوله من تناقضات، فهو إذ يوظف قصة أو أسطورة أو تاريخًا قديمًا، إنما يرى في ذلك انعكاسًا على الواقع المشهود.

ولي قصيدة مطولة بعنوان "أمسية الشتات البهيج"، استعملت فيها كثيراً من الأساليب الفنية؛ فجمعت بين "دانتي" أكبر الشعراء الأوربيين مبدعَ "الكوميديا الإلهية"، وبين الفيلسوف العربي "أبي العلاء المعري" ، وصورت الشعر باعتباره كائنًا حيًا وعالمًا قائمًا بذاته، يوازي الواقع المعيش . وهذه القصيدة تتضمن أفكاراً فلسفية ورؤى رمزية متعددة. والرمز فيها يأتي بأسلوب التلميح والإيحاء، الذي يحتمل عدة تأويلات . ولكني أرى أن الرمز يجب أن يكون شفيفًا لا معقداً، فثمة فارق بين الفلسفة وبين الإبداع الشعري؛ فالفلسفة قد يتعسر فهمها على القارئ، أما الشعر فيجب أن يتسم بالسطوع؛ أعني السطوع الذي يتثنى للقارئ المثقف فك شفراته .

والقصيدة الحقيقية هي التي تتضمن رؤى تأملية وفنية، تجعل المتلقي يخرج منها

وبعد قراءتها في حالٍ تختلف عن تلك التي كان عليها قبل القراءة، بمعنى أن العمل الفني الحقيقي هو الذي يغير من فكر القارئ ووجدانه، فينتشله من دنس الواقع إلى آفاق المثل العليا، المتمثلة في الحق والحرية، والعدالة والكرامة ...

● **"حسن فتح الباب شاعر المنفى"، إلى أيّ مدى تَصْدُق هذه العبارة في مضمونها على الشاعر حسن فتح الباب ؟**

●● بدأتْ حياتي بالمنفى، فقد فتحتُ عيني وأنا في الثامنة من عمري على فَقْد أبي فعرفت اليتم مبكراً، واليتم منفى؛ لأنه يمثل الوحدة النفسية والاغتراب الاجتماعي . أم المنفى الثاني الذي عرفته في طفولتي وصدر شبابي فهو حياة الفقر والبؤس التي عشتها، فأنا من أسرة تنتمي إلى الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة، إذ كان بعض أفرادها عمالاً، والبعض الآخر موظفين صغاراً . وأما المنفى الثالث فهو غربتي بين القرويين في أثناء عملي ضابطًا لنقطة شرطة أحمل على كتفي ثلاثة نجوم يبغضها الفلاحون كما يبغضون ظلي والحصان الذي امتطيه في أثناء الدوريات النهارية والليلية، ومحاولتي المستميتة كي أقنعهم بأن أبي وأجدادي منهم، وأني جئتُ لخدمتهم وحفظ أمنهم، ولكنهم لم يثقوا بي بسبب العقدة التاريخية المستحكمة منذ مئات السنين، فقد كانت الشرطة دائمًا سوط عذابٍ عليهم في عصور المماليك والعثمانيين والفرنسيين والإنجليز، وقد جاء في قاموس الفيروزبادي "أن الشرطة خدمُ السلطان" ، لذلك كانت أولى القصائد التي كتبتها في قالب الشعر الحر "التفعيلة" "ضابط في القرية"، وقد نشرتها بمجلة الآداب البيروتية بعنوان "غريب في القرية" والغربة نوع من النفي، وإذا كان أبو العلاء المعري قد رأى أن غربته ثلاث كما جاء في قوله باللزوميّات :

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيثِ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون الروح في الجسم الخبيثِ

فإن غربتي تتمثل في أكثر من ثلاث، ذكرت منها ثلاثًا، أما الرابعة فهي اضطهاد

السلطة الحاكمة لي سواء في عصر عبد الناصر – رغم إيماني بثورة يوليو – ، وعهد السادات، وحتى الآن، بسبب دفاعي عن الفلاحين والعمال المقهورين، إذ اعتبرتني إ المباحث العامة "امن الدولة الآن" من المتهمين بقلب نظام الدولة، وهكذا كان منفا أيضًا هو الإحساس المرير بالتناقض بما شاهدته من المفارقة بين القول والفعل، وهو أبش أنواع الازدواجية التي ابتليت بها ثورة يوليو، وكانت من عوامل هزيمة ٦٧، وقد ك هذا التناقض في الصداقة التي توثقت عُراها بين الاتحاد السوفيتي وبين النظ الناصري، وفي نفس الوقت كانت المباحث العامة تعتبر المثقفين مثلي ممن يؤيدون ه الصداقة والسياسة الاشتراكية معارضين للسلطة، فتلقي بهم في السجون والمعتقلا ومن ذلك أنني نشرت قصيدة بمجلة "الكاتب" بعنوان "أغنية إلى جاجارين"، فك جزائي من وزارة الداخلية التي كنت أعمل بها ضابطًا للشرطة النفي من القاهرة إ مديرية كفر الشيخ في أقصى الدلتا .

عانيت عذابات منفى آخر من المنافي التي عشتها وعاشتني، وذلك حين زر ضريح جدي الأعلى الدفين في المنيا بصعيد مصر، واسمه الشيخ (علي الحافي) شعرت بـ "عقدة الذنب" ، لأني طوفت في كثير من بلاد العالم حين كنت ضابطً للشرطة وبعد المعاش أيضًا ولم أزر مقر أجدادي في قرية "منسافيس" بمحافظة المني فكأنني خلقت منفىً لي بإرادتي على خلاف المنافي الأخرى التي عانيتها وعايشتها، إ كنت مكرهًا عليها لا مختاراً باستثناء فترة إقامتي بالجزائر إذ كان النفي اختيار واضطراريًا في الوقت نفسه . وقد صوّرت رحلة زيارتي لضريح جدي في ديوان "الطرو إلى الجنوب" .

■ ■ ■

● **حدِّثني أكثر عن تجربتك في الجزائر كيف كانت ؟**

●● اتخذت الجزائر منفىً اختياريًا ووطنًا ثانيًا لي بعد أن ضيقت بالسلطة الحاكمة في عص

السادات وضاقت بي، كان لابدّ مما ليس منه بدّ وهو الهجرة من وطني الحبيب ولسان حالي الآية الكريمة : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ .

ولست أنسى ليلة مغادرتي مطار القاهرة مع زوجتي وابنتي الصغرى في سبتمبر ١٩٧٧م، ولا شعوري بالغربة يوم وَطِأتْ أقدامُنا أرض الجزائر في مطار "هواري بومدين"، فقد شعرت باغتراب نفسي واجتماعي حين سمعت أصوات كثيرين من الجزائريين وهم يتحدثون باللغة الفرنسية، رغم أنها لغة الاستعمار الفرنسي الذي جثم على صدر الجزائريين مائة واثنين وثلاثين عامًا، تجرعوا من كئوس الظلم والهوان وضحوا بمليون ونصف مليون من الشهداء، وازدادت آلام هذا الشعور حين توجس بي من الجزائريين خيفة في فترة أقامتي في بلدهم، مما يرجع إلى كراهية هذا الشعب للأجانب بسبب خيانة بعضهم للمجاهدين الجزائريين، ولكنّ المثقفين الجزائريين سرعان ما اطمأنوا إليّ وأدركوا أنّي مناصرون لثورة التحرير . وقد كتبت عنها منذ اندلاعها سنة ١٩٥٤م وحتى انتصارها سنة ١٩٦٢م .

■ ■ ■

● **وماذا عن تأثير المنفى في مسيرتك الشعرية ؟**

●● عزفت على المنفى في قيثارتي الشعرية وكان أهمّ أوتارها وقد تردّدت هذه الكلمة في قصائدي، وبعبارةٍ أخرى فإن معجمي اللغوي يشمل العديد من الكلمات المعبرة عن المنفى بلفظه أو بمترادفاته مثل الاغتراب، وسواء أكان هذا المنفى مكانيًا أو زمانيًا، داخليًا أو خارجيًا، نفسيًا أو اجتماعيًا . وتضم كثير من قصائدي صوراً فنية مستوحاة من المنفى، وكذلك المعاني المعبرة عنه، كما يتميز هذا الشعر بالجهر صراحة ببغض النظام الحاكم بعد أن كان التعبير عن هذا البغض رمزيًا حيث كنت في مصر، وهكذا كانت قصائد المنفى في شعري طرقًا على باب جديد في مسيرتي الفنية؛ ذلك أني أرى "شعري هو حياتي .. وحياتي هي شعري"، وإذا كان شوقي يقول : "الحياة الحبُّ ...

والحبُّ الحياة" في مسرحية مصرع "كليوباترا" ، فإني أقول : "الحياةُ الشعر ... والشعر الحياة" .

وترتبط أشعاري المعبرة عن المنافي التي عانيتها بقصائدي في المقاومة، والمقاومة عندي هي التصدي لكلّ ما ومن يقف عقبةً في طريق حقّ الإنسان في تقرير مصيره .

قالوا عنه

الشعراء – على اختلافهم – عندي ثلاثة : شاعر تقع الأحداث والمشاهد على صفحته فيسارع في كتابة القصيدة دون تروٍّ فيكثر نتاجه، ولكنه كغثاء السيل، تقرأ القصيدة بل الديوان فلا تودّ العودة إليها أو إليه مرة أخرى؛ لأنك لن تستطيع الوصول إلى مستويات جديدة مع كل قراءة شعرية لشدة المباشرة والسطحية .

وشاعر تكتظ نفسه بشحنة شعرية عالية، قد يكون المجتمع مسئولاً عنها أو ظروفٌ ذاتية أو غير ذلك، تجعل الشاعر محملاً بهذه الشحنة، إلا أنها سرعان ما تخرج في ديوان أو ديوانين، يحاول بعدها مراراً وتَكْراراً أن يخرج شيئًا جديداً لكنْ دون جدوى سوى الصوت المتردّد في أعماقه (البطارية فارغة)، ومن ثَمَّ يبدأ في النضوب والخواء وربما التكرار، فلا عهد لديه جديداً، ويقع في دائرة مفرغة . وما أكثر هذا النوع في حياتنا الأدبية تعرفه بمجرد ذكر اسمه، وترحل في ذاكرتك فلا تجد ما تذكره له سوى ديوان أو ديوانين، كذلك هو نفسه يتخفى خلفهم كستار، ولا يعيش إلا بهم وعليهم، وحين يصل إلى مرحلة ما فإنه يعتمد على الجمعة الجرفاء في أجهزة الإعلام، لكي يحافظ على شهرته .

وشاعر تقع الأحداث على صفحته فيعايشها، ويحتضن القصيدة بين جنبيه مرتحلاً هنا وهناك، عمله في ذلك عمل النحلة التي تمتص الرحيق من هنا وهناك، حتى تفرز ما امتصت عسلاً شهيًا، وهذا النوع هو ما نتمناه من الشاعر ونرجوه في الشعر؛ لأنه هو الأجدى في

الفائدة، فالصوت الشعري متجدد، ويتردد في ديمومة دون انقطاع، إن هذا الصوت خرج عن نَفَسٍ تَشرَّبت التَّجربة الشُّعورية فأخرجتها في قصيدة شِعْرية . ومن الذين استطاعوا الوصول إلى تجربتهم من خلال هذا النوع من المعايشة : صلاح عبد الصبور، حسن فتح الباب، أمل دنقل ... إن القصيدة عند حسن فتح الباب تمثل نوعًا خاصًا من المعايشة الشعرية؛ ذلك أن الشاعر يجمع بين شخصيتين متناقضتين (الضابط / الشاعر)، كان لابد من حسم المعركة بين الطرفين، وبعد صدام عنيف (الظاهر / الباطن)، تسلَّم الشاعر السيف من الضابط راضيًا . لقد أخذ الشاعر من بيت أبي الطيب المتنبي ما يتناسب مع وضعه الجديد :

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسَّيفُ والرُّمحُ والقرطاسُ والقلمُ

ورغم أنه ارتضى القرطاس والقلم يكتب عليه وبه شعراً، إلا أنه سرعان ما تعرّف على الليل والخيل والسيف، تعرف على ذلك بعد نقله من عمله بالقاهرة إلى الريف في الشمال حيث نقطة صغيرة في محافظة كفر الشيخ . وبين البراري وأريكته التي ينام عليها في حجرة صغيرة ارتضاها بجوار النقطة تخلصًا من شَرَك السقوط في فخ العمدة، الذي أراد مساومته، تعرف على الليل والخيل حين امتطى جواداً للقيام بالدوريَّة الليلية .

لقد كان نقله (نفيه) – في ظني – هو الشرارة التي ألهبت مشاعره، فكتب أحلى قصائده هناك بين أحلام البسطاء وعالم القرية المليء بالتناقضات؛ بين عمدة يملك كلَّ شيء وبسطاء لا يملكون أيَّ شيء، وبين الظلم القائم بين كبار الصيادين وضعفائهم، ذلك أنهم أقاموا جسراً في أقل اتساع للبحيرة، مما أدى إلى تضرُّر الصيادين الفقراء وحرمانهم من قوت يومهم. فكتب قصيدة "دمٌ على البحيرة" يجسد فيها هذه المأساة، كذلك كتب قصيدة "غريبٌ في القرية" والتي نُشرت فيما بعد بعنون "ضابط في القرية" وغير ذلك من قصائد .

وسأحاول فيما يلي رصد بعض المقتطعات النقدية، التي قيلت عن الشاعر وشعره، لعدد

من كبار النقاد والأدباء، أملاً في الوصول إلى رؤية ناضجة ومستنيرة لعالم هذا الشاعر الكبير . وقد أتدخَّل بين هذه المقتطعات (الشهادات) إذا لزم الأمر، بأن أطرح سؤالاً أو فكرة أراها – في ظني – تخدم الموضوع .

■ ■ ■

"استرعت نظري بين كل ما سمعت من قصائد الشعراء الذين يكتبون الشعر الحر قصيدة حسن فتح الباب "دمٌ على البحيرة"، إذ تتحقق فيها مقومات هذا الشعر ولا سيما العنصر الدرامي، وتمتاز بالقدرة على التعبير بالأسطورة عن الواقع"[1] .

(د. محمد مندور)

"بهرني شعر حسن فتح الباب بطابعه الإنساني . إنه شاعرٌ عالمي بكل المقاييس"[2] .

(د. رشاد رشدي)

"خلال التكوينات الشعرية التي يضمها ديوان حسن فتح الباب نجد أنفسنا أمام لون حقيقي وأصيل للشعر الجديد في شكله المتميز بالهمس والبساطة . فالبناء عنده دائمًا بناء درامي فيه تفاعل وحركة ونبض، يأخذ طابع الملحمة العاصفة، أو القصة القصيرة الوادعة ويزخر بالحوار وبالترديدات وتقطيع المشاهد أو المزج الانتقالي فيما بينها ... ويظهر في ملحمته طابع العصر واضحًا كما يرتبط بالطابع الأسطوري العصري وموقفه كشاعر ملتزم من القضايا الإنسانية"[3] .

(أحمد لطفي – ومحمد البهاري)

■ ■ ■

(١) هذه مقولة د. محمد مندور في ندوة بالجمعية الأدبية المصرية في أوائل الستينيات، ووردت تحت عنوان "عن الشاعر" في نهاية المجلد الثاني لأعمال الشاعر ص ٦٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٦٧ . عن ديوان "حينا أقوى من الموت" ١٩٧٦م .

(٣) في مقدمة ديوان "فارس الأمل" ١٩٦٥م، وكذلك مقدمة الأعمال الكاملة الجزء الأول ص ١٢ – ١٣ .

إذن، ما الذي ينقص حسن فتح الباب حتى يحصل على موقعه الريادي من حركة الشعر الحر ؟ أو أن يكرم من الجهات المسئولة التكريم اللائق به كشاعرٍ كبير ؟ ، إن مجرد طرح هذا السؤال يضع الحركة النقدية موضع المساءلة؛ ذلك أن واقعنا النقدي يعاني - مثل غيره - عثراتٍ كثيرةً، لا مجال للحديث عنها الآن . لكنَّ أغلب الظن أن الذي ينقص الشاعر هو شيءٌ خارج نطاقه وقدرته، أو هو شيء يتعلّق بموقفه الفكري، ورؤيته للواقع، ربّما .

"لو تقدم يوم ميلاد الدكتور حسن فتح الباب ربع قرن لانضمّ لسلسلة ذهبية في إبداعنا وفكرنا العربي المعاصر، يتصدرها طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس العقاد وأحمد أمين . فإن أمعنت في الإنتاج الوجداني "للشاعر" حسن فتح الباب، لهالك أن ترى حوالي عشرين جوهرة من جواهر الشعر العربي، بدأ يفيض بها الشاعر منذ ديوانه (من وحي بورسعيد ١٩٥٧م)، ثم (فارس الأمل) ١٩٦٥م .. ولم يتوقف نسجه الذهبي حتى الآن ..

ما الذي يعوق حسن فتح الباب إذن عن أن يُلضَمَ في حلقات ذهبية يقف على رأسها طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس العقاد ؟! سبب ساذج جداً : هو تأخر ميلاده ربع قرن من الزمان .. فشهد ناسًا مثلنا، في زمن مثلنا، في واقع يكره كل ما هو حقيقي ونقي وراقٍ من الإبداع والمبدعين !!!" [١] .

(حزين عمر)

"شاعرنا من عشاق مبدأ الالتزام أي لابد للشعر أن يضيف قيمة نافعة للإنسان، وفي ذات الوقت لا يكون ذلك مخلاً بالمعايير الفنية . شاعرنا رغم اقتناعه بما يكتب من شعر التفعيلة لم يكن أبداً متعصبًا ضد المدارس الشعرية الأخرى، ويرجع عدم تعصبه هذا إلى ما يتمتع به من أفق واسع وسماحة كانت سببًا في عدم انتمائه إلى "شلة" معينة .. ولذا صار مجاهداً بمفرده .. إبداع تلو إبداع، تفوق تلو تفوق ولا نزال ننتظر من نضوجه وإبداعه الكثير .. يغني في شعره للفدائي وللمجاهد وللمعدم وللعاشق وللوطن وللنيل .." [٢] .

(محمد عثمان صالح)

(١) كتاب ما يزال تحت الطبع بعنوان "حسن فتح الباب بين الشعر والحياة" من إعداد الشاعر عبد العليم إسماعيل .
(٢) المصدر السابق، الجزء الأخير من الكتاب، تحت عنوان "شهادات" ، ص ١٧١ .

"حافظ حسن فتح الباب على صلته بالشعر على الرغم من انشغالاته المتعددة في الـ
والهجرة خارج مصر، كذلك في العمل الإداري الذي استمر عشرات السنين دون أن يؤثر
على شعره، بل ظل مخلصًا أمينًا على علاقته بالقصيدة، فأعطته نفسها على حين
شعراء آخرين فلم تعطهم نفسها حين هجروها أو هجروا الوطن ... وحسن فتح الباب لا
نفاق القصيدة أو محابلتها بل هو جاد صارم معها ... وحافظ على الوزن ولم ينخدع
تسهيلات ورخص موسيقية أو لغوية، حتى في كتابته لشعر التفعيلة لم يستسهل بل
يوازن الداخل الشعري بالخارج الشعري . وظلت التفعيلة تقوم لديه بدور البحر العروض
ووهب لغته - بعد ذلك - مجازاً رفع خصوبة الخيال، وحول المجهود اللغويّ إلى متعة شعر
موسيقية ولغوية ومجازية" [١] .

(د. مدحيت الجيار)

"استطاع الشاعر حسن فتح الباب إثبات أن الشعر الحديث قادر على استيعاب كل المعا
والأفكار الإنسانية العميقة المختلفة التي لم تألفها قبل ذلك لغة الشعر ولم يسبق أن صيغت
قوالبه، كما أن القصيدة من هذا اللون تتحمل بنيتها الوجدانية وجود أكثر من فكرة رئيس
وأكثر من اتجاه أساسي، أثبت أيضًا أن هذا الشكل الجديد للقصيدة زاخر بإمكانيات
واسعة، وهذا ما نجده في أعماله المكتوبة خلال مسيرته الشعرية" [٢] .

(الخضرجي إيهاب)

■ ■ ■

كانت المقاومة ولا زالت هي العنصر الحيوي والمحور الذي يدور في فلكه شعر حسن
الباب . وهو يتبنّى المعنى الواسع للمقاومة من مقاومة ظلم وسلطة وعدو ... والمسامحة

(١) نفسه ، ص ١٧٣ .
(٢) نفسه ، عن قصيدة "عندما يغرب القمر" ، (دون ترقيم) .

صفوف المقهورين والبسطاء يدافع عن حقوقهم . لذلك اعتبره النقاد من كبار شعراء المقاومة في العالم العربي . وظهر هذا منذ ديوانه الأول من وحي بورسعيد ١٩٥٧، وحتى ديوانه الأخير "علم سُلّم من هشم الرياح" ٢٠٠٦م .

"ولم يكن ارتباط الشاعر حسن فتح الباب ببورسعيد ومعانيها الإنسانية الجليلة ارتباطًا عابراً أو مفاجئًا، وإنما هو ارتباط عميق الجذور في نفسه، يقوم على وعيٍ موضوعي وإدراك مستنير ناضج . كانت "معركة بورسعيد" ومعانيها النضالية أحداثًا واقعية تزيد إيمانه بمبادئه الاجتماعية والفلسفية التي يعبر عنها في إخلاصٍ وبساطة .

ما الغيبُ إلا كسب أيدينا وفي أعماقنا المصير
إنّ الحيـاةَ حلقـةٌ تنـداح من كفـاحنـا المـريـر

... إن شاعرنا إذن يؤمن أولاً بالتاريخ، يؤمن بحركته الصاعدة، يؤمن بالتطور والتقدم، وهو يؤمن ثانيًا بأن التطور إنما يتحقق بالصراع بين قوى التقدم وقوى التأخر، وهو يؤمن ثالثًا بأن الوعي الموضوعي سلاح ضروري لهذا الصراع . وهو يؤمن رابعًا بأن الحكمة مصدرها الجموع، مصدرها الشعب، وأن التقدم رهن بنضال الجموع وبوعيها، على أن المستقبل في النهاية لها .

بهذه المفاهيم واجه الشاعر قضية بورسعيد واحتضن أحداثها البطولية وغنى بمعانيها الإنسانية والوطنية" [١] .

(محمود أمين العالم)

"ومشكلة بورسعيد نموذجية كما عرفنا، هي تمثل الصراع المحتدم في كل مكان بين القوى الاستغلالية والقوى التحررية . وحينما ينفعل القارئ عند قراءته هذا الديوان ويصمم على

(١) في مقدمة ديوان "من وحي بورسعيد" .

مضاعفة العزم في مقاومة الاستعمار سيعرف مدى نجاح الشاعر "حسن فتح الباب" في أ رسالته الفنية السامية" [١] .

(محمد مفيد الشوباشي)

■ ■ ■

والقصيدة عند "حسن فتح الباب" تمثل رحلة، أشبه بالحلم والذي سرعان ما نسقط منه ع صخرة الواقع، ومن هنا يتفجّر الصراع بين الأطراف كافة .

"... والشاعر حسن فتى القصيدة يخرج إليها ملتمسًا في سناها شمسًا تتحرر فيها ظ العمر ... يرمي كرته السحرية فتسر من أبواب الصمت وتتدفق جداول القصيدة من ذلك الم الذي تحميه حدود العين في حدقة مائية ينفذ منها الكون إلى لب الذات ... الشاطر ح يدرك منذ طفولة ما زالت ترمض في القلب أن أميرته ستعطيه ما يحب ... وأن قصيد ستمنحه سكنًا لا يدخله سواه ... يمضي العمر مغامراً يدخل منازل حافظ وشوقي ومطر وجبران وكوخ محمود حسن إسماعيل ويصعد مع الشابي إلى قمته الشماء ويصاحب ناجي ف ليالي القاهرة وإيليا في الخمائل .. يستقل الجندول مبحراً في الرومانسية وما أن تأتي نازك الملائكة بالقصيدة الجديدة حتى يجد إيقاعها في قلبه فيسير في موكب عبد الصبور والسيّا ويتواصل مع حجازي ودنقل ومحمد إبراهيم أبو سنة وعبد المنعم عوّاد يوسف .. إنه لا ينعز في ركن الذكريات وإنما يتجدد مع شباب الشعر الدائم .. ويقف إلى جوار المجددين الملتزم بالروح والهوية والجمال والفكر" [٢] .

(د. سيد محمد قطب)

■ ■ ■

(١) السابق . في مقدمة أخرى للديوان، تحت عنوان "هذا الديوان" .
(٢) "حسن فتح الباب بين الشعر والحياة" ، تحت الطبع، إعداد عبد العليم إسماعيل .

إن القصيدة - في ظني - هي الملاذ الآمن الذي يستطيعه الشاعر كي يستريح من ظلمات المنافي؛ يحيا على بحرها "حراً كالأساطير، قريراً مثل صيادٍ عجوز" [١].

"كان مطلوبًا من الشاب الشاعر القانوني المثقف أن يكون سجّانًا، فهل كان يستطيع ؟ لقد اعتبر نفسه "سجينًا خارج القضبان" وبهذا الوضع الاختياري قفز فوق حاجز التناقض، وانضم إلى جماعات المقهورين من فقراء الصيادين والفلاحين وصغار الحرفيين . وقد ثبت له صحة هذا التصوّر أن وجد نفسه مراقَبًا (بفتح القاف) من قياداته، وموضع عدم اطمئنان لأداء واجبه، كما يتصورون الواجب، وتأكد أنه سجين خارج القضبان بكل ما تعني العبارة حينما طلب الانتقال إلى وزارة الثقافة، فوافقت، لكن رئاسته لم توافق، إذ ترى أنه يجب أن يبقى تحت بصرها، خوفًا منه، وليس خوفًا عليه !!" [٢].

(د. محمد حسن عبد الله)

■ ■ ■

ظل حسن فتح الباب ملتزمًا بقضاياه وموقفه الفكري على الدوام، رغم كل ما اعتراه ولا زال يعتريه من مصاعب بسبب هذا الموقف . ويبدو أنه قد أخذ بقول الشاعر حين قال :

مَنْ لم يمتْ بالسيفِ مات بغيرِه تعدَّدت الأسبابُ والموتُ واحدُ

"ومن هنا كان اختيار أبي للجزائر/ المنفى الاختياري بعد حصوله على الدكتوراه في القانون الدولي والعلوم السياسية عام ١٩٧٨م لأنها بلد الثوار الاشتراكية، أرض المليون شهيد، وكان متاحًا لأبي في ذلك للوقت التدريس في جامعة أية دولة خليجية تمنح مرتبات أضعاف ما تمنحه جامعات الجزائر، لكن أمي لم تحرضه على اقتناء الأموال والغرق في الحياة الاستهلاكية التي تغري البشر حتى تكاد تغرقهم" [٣].

(منار حسن فتح الباب)

(١) من قصيدة للشاعر "في الربيع"، ديوان "أحداق الجياد" ، الأعمال الكاملة ص ٢٥٣ .
(٢) السابق "حسن فتح الباب بين الشعر والحياة" .
(٣) السابق . شهادة تحت عنوان "القصيدة بين ألم الطفولة ومرقد الشعر المنوهج" .

"والجزائر التي عمل بها شاعرنا كان لها نصيب كبير من قصائده التي كتبها حبًا البلد، لقد ذهب مضطرًا، لكنه استقر مع أسرته وعايش الجزائريين وانفعل بهم بقد القديم بثورة الجزائر .

وقد اكتشف الشاعر في الجزائر تراثًا عظيمًا وشعراء ومبدعين، فاندمج في هذا حتى انصهر فيه . ونتج عن ذلك مؤلفات نقدية وموسوعات رائدة وخالدة في مج الجزائري ألفها الشاعر بروح العالم الزاهد" [١].

(طارق حسن)

"الدكتور حسن فتح الباب ابن الحارة المصرية والعازف على قيثارة الشعر منذ أنامله الشدو . وهو يقطر عشقًا لهذا الوطن، حمله شريانًا في منفاه الاختياري خا المكان، حاربته السلطة فتغنى في الفقراء والمقهورين الذين ألهبتهم سياط السلطة أ يقهره بُعْد المكانة التي كان يستحقها، بل استمر مندفعًا كالليل ينشر أبياته في وجه تعددت أساليبه الفنية في كتابة الشعر كما تعدد عطاؤه . أصدر عشرة كتب في نف إلى جانب سبعة عشر ديوانًا، غير الكثير من الكتابات النثرية والمقدمات والدراسات ... حياة حافلة ... مشوار طويل فيه الصراع مع السلطة والغربة ونصف قرن من الإبدا

(هالة فهمي)

"لقد عاد حسن فتح الباب من أمريكا فزعًا مما رأى، وخائفًا من السلطة بالمفهوم الـ هناك . فكان طبيعيًا وهو يترجم رحلته إلى أبيات من الشعر أن يغني بلهجة الخائف يتعاطف مع الغرباء والهاربين . إن الفزع من سرطان السلطة كما عاد به حسن فتح ا يمكن أن يكون فزع ضابط، وإنما هو فزع شاعر حقيقي بكل معنى الكلمة، فزع رجل

(١) السابق . شهادة تحت عنوان "الشاعر والإنسان" ، ص ١٦٥ .
(٢) السابق ، ص ١٦٨ .

الشعر في عظامه ولا يحاول على الإطلاق أن يفتعله واللهجة التي يغني بها لهجة رجل مطارد لا رجل يطارد الآخرين . ولأنه شاعر فإن الإيمان بالإنسان يجد طريقًا بين أبياته من خلال الضباب والأسى .. هذا الشاعر العذب الحزين"[1] .

(صلاح حافظ)

(١) دراسة "عن الشاعر" في نهاية المجلد الثاني لأعماله ، ص ٦٦٧ .

مختارات شعرية

تواجه المرء حيرة إزاء اختيار نماذج شعرية للشاعر حسن فتح الباب، ذلك أن أشعار ببعد إنساني، وتشف عن رؤية شعرية يمكن أن نطلق عليها "رؤية كونية" ، كذلك فإن غزير، فلا يزال يكتب شعراً يتدفق في وداعة حتى الآن (أطال الله بقاءه بيننا) .

ومن بين نتاجه الغزير، وبعد هذه الحيرة اخترت مجموعة من القصائد القصيرة (ا الومضة) وقد تسمّى بقصيدة "التوقيع"، ويسميها البعض بـ "الإيبجرام" ، وغير مسميات ... لكنها تتميز عند حسن فتح الباب بشيء يمكن أن أسميه – إن جاز لي بـ"التصوير اللّحظي"، أي الآني القائم على رصد الحدث وسرعة تصويره ونقله، كما بالإيجاز والعمق الشديد، كما أنها تبحر في الذاكرة الإنسانية جمعاء . فتعالوا معي لصوت الشاعر وهو يتردّد في الربيع :

"لما أتى النيروز
خلعتُ معطفي الذي استأجرتُه
وسرتُ فوقَ الماءِ حُرّاً كالأساطيرِ
قريراً مثل صيادٍ عجوز
أحدّثُ الأسماكَ والنوارسَ المُحوِّمه
على شراع صخرتي
أحاور السحائبَ المنطلقه
أطرد عني الذكريات الهرمه
أصعد مختاراً على حبالي الممزقه

تلوح لي جمجمتي المعلقه
أعود منفيًا على صخرتي"[1] .

وهكذا يعود الشاعر من رحلته منفيًا، قد رضي من الغنيمة بالإياب، ليعود مرة أخرى إلى الترحال :

"أرباب الوادي المجدب
عَبُّوا من كَرْم النهر
نهلوا .. عَلُّوا .. حتى ثملوا
لم يُبْقوا من قَطْر
ثم ارتحلوا
بحثًا عن سر الجدْب
ما كادوا يغشوْن الليل
حتى ارتحل الويل
وانهمر الغيث"[2]

أبريل ١٩٧٦

ويرتحل الشاعر في عبق التاريخ، باحثًا عن ذاته ومعالمه، التي اغتربت عنه واغترب عنها، فهل يجدها ؟

(١) من ديوان أحداق الجياد - الأعمال الكاملة للشاعر حسن فتح الباب (المجلد الثاني)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م . قصيدة "في الربيع" ، ص ٢٥٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤، قصيدة "رحيل" .

"رجعتُ فرعونًا على (طيبه)
وكانت الآلهةُ الطينيةُ الشماء
هناك منصوبة
أتعبني سكوتُها المريبُ
ولم تكنْ صماء
نظرتُ في جبينها
طالعني وجهُ ابنتي
نظرتُ في العينين .. كانتا
عينيَّ .. لكني غريب"[1]

لكنْ بلا جدوى يعود الشاعر غريبًا، رغم أنه ارتحل إلى أصله وذاته، ووجد ما مطبوعة هناك، فهل يقدر أن يبدأ الرحلة ثانية ؟ أم أنه صار منفيًا وبات عليه أن يتجرع الاستسلام المرّ :

"رجتُ منفيًا إلى (منفٍ)
ضلَّ بيَ الدليلُ
أمَّنتهُ هناكَ من خوفٍ
فاغرورقتْ عيناه
وفكَّ لي قيدي

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، قصيدة "طيبة" .

آخيته .. وصار لي خليل

وجدتُنا على جناحيْ طائر الوعدِ

وفجأةً عدنا إلى (منفِ)

آهٍ لمنفاي الذي وحَّدنا

على جناحي طائر الرعدِ "[1]

وهكذا فإن الشاعر من المنفى إلى المنفى يعود، يمثل في ذلك تجربة سيزيفية، ولكنْ بشكل آخر، فهو لا يحمل الصخرة بل يحمل ذاته المنقسمة بطبيعتها بين الظاهر (الضابط) الذي يمثل السلطة، والباطن (الشاعر) الذي يخالف الظاهر في كل شيء، ومن هنا يأتي الصدام الداخلي في حياته . وهو كذلك لا يرجو العبث بل يحاول دومًا الخلاص من المنفى الداخلي والمنفى الخارجي، وبين هذا وذاك تتشظّى الذات وتشفّ حتى تصير كالغلالة الرقيقة، تبحث دومًا عن أمل العودة :

"عائدٌ مِنْ زَمَنِي" عائدٌ

غارِق في وَطَنِي

وطني مَهْدٌ هلاميٌّ وَثِيرْ

دُودَةَ القزّ أنا

ضمُّها في صَدْرِهِ الحَانِي الجَرِيح

فانْحَنَتْ تنْسجُ أكْفانَ الحَرِيرْ

(١) المصدر السابق ،ص ٢٤٤ - ٢٤٥، قصيدة "منف" .

لَسْتُ بالغازِي الصَّليبيِّ

ولكنَّ الذي أحْكمَ أغْلالي

(صبيح) "[1]

وهران ٢٩ سبتمبر ١٩٨٣

المفارقة تتصاعد هنا من موقف الشاعر الذي يمثل الحارس والسجين فهو ليس بـ الصليبي ولكنه مطارد رغم أنه ينسج الحرير (الشعر) الذي سرعان ما يتحول إلى كفن ضمّ الدودة في صدره الحاني الجريح (الفقراء والكادحين)، ليأتي صبيح بحكم الأنثى الذكريات تؤنس وحدته في "السجن" فيحيا كما لو كان طليقًا :

"أحْملُ خطوي في ليالي الربيع

أزوركم .. نحيا على الذكرى قليلاً

أسمع ناي الغرباء

وأغنيات العائدين

وألثم الربيع في جبين طفلةٍ

وفي تلامح العيون

أسمع نايًا .. لا أرى وجوه من أحببتهم

ومن أحبُّوا أن يروني قبل أن ينطفئ الشعاع

(١)ص ٦٧ - ٦٨ الأعمال الكاملة (المجلد الثاني)، ديوان "مواويل النيل المهاجر"، قصيدة "أغني للوطن".

سرت بعيداً .. بيتكم من الزجاج .. والشبابيك التي
غنتْ مواويلي ولم تملَّ صُحْبتي
هوَتْ من الذكرى قتيله" [١].

أما الرحلة الجديدة التي ينوي الشاعر القيام بها، فهي رحلة أسطورية تتداخل فيها الأمكنة والأزمنة، لكنْ هل ينجو الشاعر فيها من الغرق في الطوفان ؟ وهل يصدق القوم النبوءة ؟ :

"ركبتُ أسطحَ المعابد
وجدتُني وحدي
تداخلتْ مآذن المساجد
بكيتُ من وجدي
وانتشر الطوفان
يا حسرتا على العباد ما
يأتي مصدِّق من القرى الحزينة
إلا نفوه .. كذبوا النبوءة
حملتُ أوزارَ الذين آمنوا
بي حين كنتُ ملحداً
ولم يعودوا .. عدتُ لم أجدهمو
وما عرفت أيّنا المضلَّلُ

(١) المصدر السابق ،ص ٢٥٩ - ٢٦٠، قصيدة "الناي" .

وأيّنا المضلَّلُ
لأننا لم نعترف أنّا مضينا .. ما تعارفنا
ولمْ نَخَفْ لمّا تعرينا"[١] .
"يا حسرتا على العباد ما
يأتي من القرى مصدِّق
إلا افتروا .. كانوا به يستهزئون
حين رموني بالجنون
لأنني مكذبٌ
أيقنتُ أنني المقاتلُ الذي
ما عادَ منصوراً ولا شهيداً
لكنّه ألقى ببذرةٍ هناكَ
في سواحلٍ بعيده
تنبت سَرْواً .. فوقَهُ
نشدو غداً بصوت بلبلينْ
وثغر عاشقَينْ
نعود منصورينْ
نعود منصورينْ" [٢].

(١) المصدر السابق ،ص ٢٤٩ - ٢٥٠، قصيدة "الطوفان" .
(٢) المصدر السابق ،ص ٢٥١ - ٢٥٢، قصيدة "العودة" .

هكذا يشرق الأمل في نهاية الطريق ليفتح الباب أمام الشاعر للعودة مرة أخرى، لكن هل يتحقق هذا التفاؤل على أرض الواقع ؟ وما هو الأمر الذي يبغيه الشاعر من خلال هذه الرحلة؟:

"الموجة عادت سيرتَها الأولى
كي تكملَ دورتَها
لُما التأم البحر
لكنَّ القلبَ صديعٌ
والجرحُ الدامي لم يبرأ بعد
والموجةُ ما زالتْ تخشى
أن ينشقَّ البحر"[1] .

أبريل ١٩٧٦م

"تنتصر الضحية
ويسقط الجلاد
لتولد الحرية" [2] .

"لما أنجيتُ من الحوت
أسلمتُ الخطو إلى الطاغوت
كي أرقى مركب نوح

(١) المصدر السابق ص ٣٤٦، قصيدة "العودة" .
(٢) المصدر السابق ص ٤٣٥ ، قصيدة "الميلاد الثاني" .

أتدلَّى بين الصفّوه
في أحضان التابوت !!"[1]

٤ أبريل ١٩٧٦م

لكنْ هل يصل في رحلته إلى ما يصبو إليه ؟ . أو هل ستأتيه الأمواج من وصوب ؟ إنها رحلة بات يمكن أن يواجهها لآخر قطرة من دمه دون أن يستسلم :

"القلب جريح
ينزو فوق الشط الحالم
خَلف التابوت النائمْ
وسريرُ اللّجه
لَحْدٌ للربِّ الأعلى
صرحٌ للطغمه
من عُبدان العالم
فمتى تجلو السر
أحشاءُ اليم"[2] .

٤ أبريل ١٩٧٦م

إنه ينتظر الخلاص ويسير في طريقٍ تحفّه الغيوم وتعتريه الأسقام، بودّ الوصول، بعـ

(١) المصدر السابق ،ص ٣٣٨، قصيدة "الصعود" .
(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٩ - ٢٤٠، قصيدة "السر" .

التي طالت، يطرق الأبواب، ويترحل بين الفصول، علّ بابًا موصداً يرقرق من أنين الطرقات، أو نافذةً تفتح فيشرق الضوء :

"أمضي بين الأنسام الباردة الولهى
في ليل الصيف
مسحوراً - كالطير الغافي فوق الشط الساجي -
بنثار الأمواج
فوق وعاء العشق الناريّ الشاجي
وعناقيد الشّعر الشفقي
تُشجيني الذكرى
تطفو فوق الموجات جباهُ الأطفال
تتدلى من بين الأغلال
خُصَل دَميتْ من رأس نبيّ
أصحو من أضغاث الحلم
ونثارٌ من موج قانٍ ساخنْ
ينساب على الوجه العاني المتغضنْ
والقلب الجيّاش الواهنْ
لكنّ الأقدام الصماءَ تغذُّ السير

بين الأعشاب الرقطاء"[1]

٣١ مارس ١٩٧٦م

مازلات الأقدام تسير كعجلات "الترام" لا تتوقف، تبغي الرصول، ولكنْ لكل ش
فما الثمن الذي يدفعه الشاعر من أجل العودة ؟ :

"ألقيتُ ما ادخرتُ في مهب عاصفه
عادت إليَّ حكمتي معصوبة العينين
ولم يعد قلبي الخليّ
وكان حزني أنني أحزنْ
وأنَّ من لديه ما أريده
لا يعرف الأحزان
وأنه يملك أفراحي القليلة
أنا الذي ما زلت - في حزني - قتيله" [2]

"هذا خدي الأيسرْ
لا تلطمْه إني لا أملكُ غيرَه
لا أملكُ خداً أيمن
وحرامٌ تلك النشوه
أنْ تخمُدَ أو تتقطع !

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨، قصيدة "الأعشاب".
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥١ - ٣٥٢، قصيدة "النذير".

لا تقتلك اللهفه

يا مجدَ الصّفوه

حزنًا لضياع جبينٍ أبله

وجه أو قلب في الطوفان

عانٍ .. عُريان .. نصف مُشَوَّه ! "[١] .

أبريل ١٩٧٦م

كان لابدّ للشاعر أن يدرك هذه الحقيقة، وأن يتفهّم طبيعية اللُعبة قبل أن يبدأ الرحلة، لقد تغير الزمن وتداخلت معالمه، فقد يكون الموت حياةً ، لأن الحياة تولد من جديد في دورةٍ أبدية، تعطي للشاعر المثل، وتدعوه للتأمل في دورة حياته (المنفى) ، فينشرح صدره أملاً لميلادٍ جديد، ورحلة متجددة :

"ينتصر الربانُ حينما

تغلبه البحار

وتحتوي سفينَتهْ

يطعنها في القلب

مُلقيا لها بجثتهْ

ينتصر الموتْ

ليولدَ العطاء

فلْنتعلم أن نموت مرةً

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨، قصيدة "السيد" .

على بحار الحب"[١] .

وحينما وصل الشاعر إلى هذه الرؤية الفلسفية توحّدتْ ذاته، وتساوت لديه الحيا
وأدرك أن الترحال هو الزاد الذي يعينه على مواصلة المسير بين فصول المنفى، كما تب
الرؤية على الانطلاق كطائرٍ يحلق في الفضاء ويهبط على الشط في رحلة من نوعٍ آخ

"كطائرٍ أعمى ينسلُّ في الظلام

للشاطئ المباح للأقدام

عاد ملاكُ الحب

يقترئ أهلَه النيام

هبت رياحُ الحرب

فانبثقَ النورُ على العينين

وأغْرقَ الشطين"[٢] .

وهنا تتكشّف الرؤية، وينقشع الظلام، لكنْ في اللحظة التي نرخي السُّتُور ف
نستريح بعدما وصلنا مع الشاعر إلى برّ الأمان تداهمنا مفاجأة ليستْ أقل وطأةً من ساب

"رياحُ هذا الصيف لم تهب

ونحن ودّعنا ليالي الشتاء

ولم تزل شجيرتي

بلا زهور

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، قصيدة "الميلاد" .
(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٧، قصيدة "ملاك الحب" .

هل يقبل الربيعُ يا حبيبتي
بغير حبّ ؟ "[١] .

إن هذا التساؤل يعيد الشاعر ويعيدنا معه إلى لحظة البَدء، حيث صورة الربيع الأولى حين ابتدأ الرحلة . هكذا تتكرر الدورة في ديمومة، مع الاعتراف بالفارق بين الصورتين؛ فالأولى يعرف الشاعر طريقه وينطلق في رحلة أسطورية، بينما يظلُّ في الثانية ساكنًا يتحسَّسُ حواليه ويطرح السؤال، ذلك أنه عاد في الأولى منفيًا ، بينما ما زال ينتظر الإجابة في الثانية .

"المغربُ موجٌ منحسرِ النورْ
طيفٌ ورديٌّ مُنكسِرُ الضوءْ
يسري ما بين الشطين
بحثًا عن قلبين
في أعماقِ النهرْ
لما كشفا السر
ثم اعترفا
لاذا بالمنفى
ثم اعتنقا فانشقًّا نصفين
طيفًا ورديًا منكسر الضوء
موجًا في المغرب منحسرِ النور
رجلاً بين أمرأتين"[٢] .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ ، قصيدة "شجَن" .
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٩ - ٣٥٠، قصيدة "انحسار" .

هكذا فإن الشاعر يحلّق في عالمٍ سحري مبهم سرعان ما تتفتح وريقاته ش
وصولاً إلى أرض الواقع الذي يتميز بالصراع والتناقضات الحادة :

"البلبل المسكون
بنشوة العناق للفضاء
وشهوة الإفضاء
يطير أو يموت
ولا يكف قلبه عن الغناء"[١] .

هذا هو الشطر الأول من الرحلة، أمّا الشطر الثاني فإنه يمثل الغربة والألم في رح
(الشاعر) :

"الطائر الغرِّيد
أوقعه القضاءُ
في مخلبيْ صياد
يقتات بالدماء
ففاض لحنه الأخير
لما رأى الصياد
في قبضة الجلاد" [٢] .

لقد سقط الطائر في قبضة الصياد، وسقط الصياد في قبضة الجلاد، وهكذا في
واحدة مع تبادل الأدوار :

(١) ديوان البلبل والجلاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢م، قصيدة "البلبل" ص ٤٩ .
(٢) السابق، قصيدة "الجلاد" ، ص ٥٠ .

"الصائد الجَموح والمصيد
تبادلا الأدوار
وبعدها تعانقا
في رحلة المصير
واتفقا في المشهد الأخير
على اقتسام الريح والقَتَاد
وعَضَّة الأصفاد" (١).

حقًا إنها رحلة سيزيفية تسعى دائمًا إلى الخلاص، لكنْ لا خلاص . أو هي مسرحية هزلية ساخرة :

"كان القرار
بَدءاً لمسرحية
لمخرج ضرير
أما الختام
فلعبة الأفعى مع الحمام
والبلبل الشادي مع النسور" (٢) .

يظل الشاعر دومًا في رحلته باحثًا عن البراءة ، عن المعنى البكر، عن الأحلام الجديدة، عن اللحظة الأولى التي تولد فيها النبتة الصغيرة، كي يراها وهي تتبرعم، ويا لها من لحظة "لحظة اختراق الساق الدقيقة لحبة القمح" (٣) .

(١) السابق، قصيدة "مشهد" ، ص ٥١ .
(٢) السابق ، قصيدة "مسرحية" ، ص ٥٤ .
(٣) مقدمة للشاعر بعنوان "والأغاني وطن"، في مقدمة ديرانه "سلة من سحار" سنة ١٩٩٥م، الأعمال الكاملة (الجزء الثاني) ص ٥١٣ .

لقد حاول كثيراً أن يمسك بهذه اللحظة ، لكن دون جدوى

"تشكو النَّسْمةُ للشجرةِ عصفَ الريح
والوردة تشكو للغصن
ما صنع الليل :
أطفأ سحَر اللون
فتوارى اللحن
والحُرَّة تشكو الأغلال
والأرض الحُبلى بالخصب
تشكو الإنسان" (١) .

"يذوب حتى النفس الأخير
في عشقه المطر
مغتسلاً من الكدر
من عريه وغربة الكساء
محرَّراً من الضجر
من الضنى .. من الخواء
كأنه ابن مريم البتول
مُصعَّداً إلى السماء

(١) ديران البليل والجلاد "سنة ٢٠٠٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب . قصيدة "شكوى" ص ٧٧ .

يبكي مع المطر
خطيئةَ البشر"[١] .
"عصابة الأقزام
تحاكم الهرم"[٢] .

ويبقى السؤال المحير دون جواب :

"هل يقوى نهر من دمع
أن يغسل بحراً من دم
غطى وجهَ ضحايانا ؟ "[٣] .

"يكاد أن يطير
معرّجًا إلى السماء
وغاديًا غمامةً
أو قطرةً من الضياء
يكاد أن يطير
لولا حنينه وعشقُه
لعشّه الأثير"[٤] .

(١) نفسه ص ٨٠، قصيدة "خطيئة" .
(٢) نفسه ص ٩٨، قصيدة "بلا عنوان" .
(٣) نفسه . ص ١٠٠، قصيدة "الضحايا" .
(٤) نفسه . ص ٦٥، قصيدة "الوطن" .

لكنْ ، هل يستطيع حسن فتح الباب التوقف عن هذه الرحلة ..؟

أغلب الظن : لا ؛ لأن اللحظة التي يستوقف فيها عن التحليق في هذا العالم المبهم، هي اللحظة نفسها التي سيلقي فيها بقرطاسه وقلمه، فلا يدوّن أيُّ بيتٍ جد ارتبط بالرحلة بالقدر ذاته حين ارتبطت به .

يرحل في ذاكرته فخرج لنا دُرُّتيه "أسمى الوجوه بأسمائها" و "حارة المجدلي"، وي أمريكا في رحلة دراسية فيعود إلينا بديوانه "مدينة الدُّخان والدُّمى" سنة ١٩٦٧م، ير الجزائر فيعود إلينا بعد رحلة طويلة بديوانين "وردة كنت في النيل خبّأتها" سنة ٨٦ "ومواويل النيل المهاجر" سنة ١٩٨٨م . يرحل إلى الجنوب حيث أصله وذاته هناك ديوان "الخروج إلى الجنوب" سنة ١٩٩٨م، وغير ذلك، .. كل ديوان رحلة شديدة الخص وهكذا لتبقى الرحلة هي الإبداع والحبّ والعناء والمنفى في آن واحد، سيظل الشاعر العناء والنفي ويحمل الإبداع والحبّ وينتظر الربيع كي يرحلَ من جديد :

"الشاعر الشجي
ينتظر الربيع
وجوقةَ النغم
ليُخمد الألم
وعضّةَ الصقيع
ويوقد الأمل
لكن سلطان الظلام
يصادر الأحلام
وجنده الصُّمّ العتاه

يطاردون موكب الغناء

لتَسقط الحياة

ويعلوَ العدم

الشاعر الشجيّ يعتصم

بعشقه الوجود

وشوقه إلى القمم"[١] .

هكذا تكون رحلة الشاعر، لقد رحل من قبل بين الفيافي والبراري في النُّقط يعمل ضابطًا للشرطة، أرسل ليكون سجّانًا فأضحى سجينًا، فكتب في منفاه أحلى قصائده مثل : "ضابط في القرية" ، و "دمٌ على البحيرة" ... وغيرها الكثير . يقولون إن الشاعر يحتاج إلى الاستقرار كي يبدع ... ، لكنَّ حسن فتح الباب كان من الذين كسروا هذه القاعدة، متخذاً من الترحال والنفي والألم ملاذاً للإبداع، فخرج الشعر منه دون عناء واستدعاء، وهنا تكْمن الخصوصية والتفرُّد . إنني لو سئلت أن أضع عنوانًا يضمُّ ثلاث كلمات تُلخِّص مسيرة حسن فتح الباب لقلت :

(البراءة ... الإبداع ... النفي ...)

(١) السابق ص ٨٥ - ٨٦، قصيدة "الشاعر" .

قصيدة

ثُلاثيةُ المَنْفَـى

(مُهداة إلى حسن فتح الباب)

محمود حنفي محمود

وَجْهٌ بريءٌ طَلَّ مُشْرِقًا على رُبى الوَطَنْ
وجْهٌ بريءٌ يُشْرِقُ الإصْبَاحَ مِنْ نافِذَةِ الزَّمَنْ
وَجْهٌ يُشعْشِعُ الضِّياءَ والحنينْ
وَجْهٌ يُرقرِقُ الحياةَ والسَّكَنْ
"بَرْدًا وسلامًا" أتيْتَ يا "حَسَن"[١]
على بريدِ الشَّمسِ سَافَرَ النَّبأْ
وحَيْنَ جاءَ الخبرُ التوى الجَبِينْ
غابتِ العيونُ في غياهبِ الدُّموعِ والشُّجنْ
وهَرْوَلَ الأبُ الطَّريقَ مُسْرِعًا
واحْتَضَنَ الصَّغيرَ بأوَّلِ قُبلَةٍ
وبعْدَها توالت القُبلْ ...

■ ■ ■

(١) الشاعر الدكتور حسن فتح الباب .

في سنِّ سبعٍ ضاع "فَتْحُ البابْ"
وخلَّفَ الطِّفْلَ الرَّبيْعَ في بُحورٍ منْ عَذَابْ
يُردِّدُ الصَّوتَ السَّقيمَ في الدُّروبْ
لَكنْ يُجَيْبُهُ الصَّدى دُوْنَ الجوابْ
ولا عتابْ ... !
فاستلَّ جَرَّةَ الحياةِ من صحاري الجَدْبِ
في النيلِ الكريمِ ألْقى الحِبالَ، دُوْنَ مالٍ
جاءَهُ الماءُ أضاءت السَّماءْ
امتصَّ رَشْفَةً وَعَادَ للوراءْ
فاسْمرَّ منْهُ الوَجْهُ واسْتَقَامَ فيهِ العودْ
ناداه : لا تَخَفْ أنا أبوكَ
لا تَحْزنْ على ماضٍ وآتْ
دَعْ عَنْكَ رَسْمَ الذكرياتْ
مركبُك الحياة
شراعُكَ الحريَّةُ في وجهِ العتاهْ .. طَوقُ النجاه
وقلبُكَ الدامي الجراحُ واحةٌ منْ سَلْسَبيلِ الشِّعْرِ
وَبوحَةٌ تُرَشْوِشُ الصَّفَاءَ ... تَهْمِسُ الشَّجَنْ
وطينُكَ الوَطَنْ

مَجْرَايَ يُرْسلُ البريقَ في الضحى
فامضِ عليه كيْ تزيلَ منّيْ مَقاصِلَ الرُّفاتِ والعَفَنْ
ولا وَسَنْ
هيَّا انْطَلقْ ... نَحْوَ الحَيَاه .

■ ■ ■

في العَاشِره ... في رحْلةِ التِّرامْ
يأتي بَصيصٌ منْ عُيونٍ شارداتْ
تَرْسو العذاباتُ على صَفاءِ وجْهِهِ
يُسائِلُ الوجوهَ الكالحات :
مَنْ أنا ... ؟ ظلُّ الغريب أمْ أنا
أخوكم الذي امْتطى جوادَ الغُرباءْ
فأيْنَ مَنْ يدلُّني على "العتبة الخَضْراء"[1].

■ ■ ■

ودارتِ الأيَّامُ دَوْرَتَها
فصولُ العُمْرِ تجري بين شَطَّي المدينه
تنشُدُ النجاةَ لكنْ لا سفينه
تَحْملُ الأقْدَامَ أو أشْرعتي

(١) العتبة الخضراء هي المكان الذي كان يعمل فيه الشاعر وهو صغير في مكتبة لبيع الكراسات والأدو

أعَانِقُ القَلْبَ الصديعَ في جوانحي
فَينْزُفُ الحياةَ الباقيه
أعلِّبُ الدماءَ مني مُثْخَنَه
صَبيْحَةَ السَّبتِ الأليم يُؤْنِسُ الطَّريقُ وَحْدتي
تناديني حقيبتي الشَّلاءُ وهي تئنُّ :
أنْ أنْشَدَ شعْرًا جَهْوريًا
علَّ طرْفًا بارداً يقومْ
عفواً : فلسْتُ أمْلِكُ اليومَ القولْ
فجَعْبتي خاويةُ النِّصَالِ لا تَزلْ
والنَّاي يأتي صوتُهُ شَجيٌّ من الحقولْ
يَنْعي الزهورَ قد كساها الصمتُ
شفَّها الذُّبولْ
والصوتُ في الأفواهِ قادمٌ يَغُذُّ السيرَ :
مَنْ ... ؟ "لا تَزْحِم الطريقَ بالخُطَا ... يا أيُّا الغريبْ
خُطاكَ ظِلُّ طَارِقٍ كَئيبْ
... ولسْتُ بالغريبِ يا رفاق لست بالغريبْ" (١)
أعودُ منفيًا إلى مدينتي في ليلةِ الخميسْ

(١) هذه الأبيات من قصيدة "ضابط في القرية" للشاعر حسن فتح الباب .

لِيَبْدَأ الرِّحْلَةُ مِنْ جَديدْ
علَى رَحَى الرَّحِيلِ دُوْنَما أنيسْ ... !
والصوتُ في الأعْمَاقِ راعفٌ يئنْ :
يا ضابطًا في القرْيةِ المحْمُوْمَةِ الأنْفَاسِ
ربِّتِ الهُمومَ بالنُّجومِ وارْتَدِ الإحساسْ
ما عادَ يُجْدي الصَّمتُ بَيْنَ النَّاسْ

صَبيْحةَ السَّبتِ الأليمْ
أعلِّبُ الدِّماءَ منِّي مُثْخَنَه
للفُقراءِ الجائعَيْنَ في العَرَاءْ
أقَدِّمُ الغذاءَ والدَّواءْ
وَحَيْنَ تُبْصِرُ العُيونُ طَلْعتي
يَجُوْلُ خَشْخَاشُ الهَمْسَ خفْيَةً ... تَفِرُّ أقْدَامُ العِيرْ
أصَيْحُ : إخْوَتي أنا لسْتُ الأميرْ
عَبْدٌ فقيرٌ جَاءَ يروْي الأرضَ البوارَ
إخْوَتي أريدُ حبَّةً من الحنانْ
نَزْرَعُهَا في طيْنَةِ الكيانْ
نروْي الزُّهورْ ... بماءِ قلبنا الطُّهورْ
كي يَسْتَقيمَ العُودُ في الإنسانْ

■ ■ ■

وَمَثْلَما تَذُوبُ مَوْجَةُ الحياهْ
على أديمِ سَاحلِ الغُروبْ
وَمَثْلَما يَنْشَقُّ طَائرُ الشَّوقِ راعِفًا مِن الجَنوبْ
وَمثْلَما تَضيْعُ في حنايا الصَّمْتِ الدُّروبْ
على جَنَاحِ الرَّعْدِ غَابَ الطَّائرُ
في "جُبَّةٍ" يَرْجُو الخروجْ
مُدِّي يَدَا جَزَائرَ الحُبِّ الكليمْ
يا ذكْرَيَاتِ الوطنِ الشَّهيدْ
اسْتَقْبليْني مِنْ على بَوَّابةِ الحُلمِ السَّعيدْ
أَرْجو الحياةَ ... لا الوعيدْ
إنَّ الجَناحَ ينْزو عِطْرًا لا صَديدْ
اسْتَقْبلي جميلَ منْفاهُ الجَديدْ
يُنكِّسُ الأعْلامَ فوقَ قَبْرِها المجيدْ
وَينْشرُ الورودْ
"جَميْلةُ" التي أحبَّتِ الحياه
ماتتْ وَوَجْهُها يُرَقْرِقُ الحياه
مِنْ أجْلِ أنْ تقيمَ شَطْرى الحياه

■ ■ ■

ورَأسُ "زَهْران" المُدلَّى
ما تزالُ في حباله الحياه
وبوحةٌ تَفْري الضُّلوعْ :
عُوْدوا لترْفَعُوا عُروقَ الرأسِ
فالحبالُ تَفْري اللَّحْمَ ، تَنْخُرُ العِظامَ
غَيْرَ أنَّها تموتْ ... ، لا تَسْحَبَ الرُّوحَ
فعُودُوا إخوتي ...
فأينما تفرُّوا "فَثَمَّ وَجْهُ الله"
ففرُّوا إخوتي : "مِنْ قدر الله"[1] حين جاءْ
"إلى قدر الله" كيف شاءْ

■ ■ ■

ورَأسُ "متولي"[2] يَغُوْصُ في الماءْ
"دمٌ على البُحيرةِ" ما زالَ نازفًا
يُخضِّبُ الدِّماءْ
كي يسْتَقِيْمَ العُودُ شاخصًا يردِّدُ النِّداءْ :
مَا زِلْتُ أحْيَا في السَّماءْ

(١) سأل أبو عبيدة سيدنا عمر (رضي الله عنه)، أنفرُّوا من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبيدة نفروا من قدر الله إلى قدر الله" .
(٢) الشخصية الدرامية في قصيدة "دم على البحيرة" ، للشاعر حسن فتح الباب .

ما زالتْ الأحْياءُ تَنْحَني كَسيْرَةً بلا حياءْ
غداً تموتُ الأمُّ على حِجْرِها الطِّفلُ الرضيعْ
يُدغْدغُ البكاءَ يَلْعقُ الثَّرى
والأبُّ في الورىْ ... يصيحُ ماذا جرى ... ؟

■ ■ ■

وَرَأسُ "يُوْحَنا" الوديعْ
ما زال صَامتًا يقلِّبُ العيونَ في الوجوه
فلا يرى سِوَى الدِّماءْ ... تَهْطِلُ مِنْ على الشِّفَاه
فَتَنْشُرُ الفضاءَ شَفَقًا كليمًا أحْمرَ
يُودِّعُ النهارَ .. يَرْغُو في الصَّبَاحْ ... بِصَحْفَةِ الطَّعامْ
يَمْتصُّهُ الأميرْ ... فكيفَ لا تَبْكِي العيرْ ... ! ؟

■ ■ ■

"سيْزيفُ لمْ تَعُدْ على أكتافِهِ الصَّخره"(١)
مَلَّ الصّعودَ والهُبُوطْ
تَوارى خَلْفَ شَجْرةِ الصَّمتِ الطويلْ
أبْصَرَهُ الذينَ عذَّبوه
فأغْمَضُوا العيونَ ... كفَّنوا الجَسَدْ

(١) البيت من قصيدة "كلمات سبارتاكوس الأخيرة" للشاعر أمل دنقل .

وَراحُوا يبْحَثوْنَ عَنْ "سيزيْفَ" يأتي من جديدْ
- لا .. لا .. أريدُ صَخْرتي قبلَ الرحيلْ
- لتنْشُروا المكانَ خُضْرةً بَسَعَفِ النَّخيلْ
- فلا تراءتْ أدْمعٌ عليٌّ في عَيْنِ الأصيلْ
- فأيْنَ كُنْتَ يا نيلْ ... ؟

■ ■ ■

إليك قَدْ أعودُ يا "وهْرانْ"(١)
متفاي فيْكَ صار عشْقًا وافتنانْ
عَفْوًا : أريْدُ حبَّةَ الحنانْ
تَنْمُوْ على جَبينِ أصيْصِ الحياة
زَهْرةً مُخْضلَّةً ما دارَ مِجْدافُ الزَّمانْ
"وهْرانُ" قَدْ حَانَ الرَّحيْلُ فامْنَحيني منكِ
أصْواتَ السَّلامْ

■ ■ ■

هَا نحْنُ عُدْنَا نخْتَمي ... بالذِّكْريات النَّاشِئه
فهيَّاي يا أمْرَأتي بَعْضَ الدُّموعِ المُرْجَاه
المشْرئبَّةِ العِناقِ للوطنْ

(١) بلدة في الجزائر اتخذها الشاعر حسن فتح الباب منفىً اختياريًا له .

هديَّةٌ فقدْ رَمَاني نائحًا كَمَنْ رمَتْ بهِ
على قارعَةِ الطَّريقِ خاطِئه
لَمْ يَبْقَ في حُطَامِ جَعْبتي نِضَالْ إلا السِّهامُ السيِّئه
فهيَّأي يا امْرأتي كلَّ الشُّموعِ المطْفَأه
كلَّ الوريقاتِ المُخبَّأه
لسَوْفَ نبكي في غدٍ نبلُّ خَدَّ ليْلاءِ القوافي المنْشَأه
نقلِّبُ الأوراقَ نَوْحًا لا نَجِدْ ... سوى المنافي المُبْطِئه
يُوَحِّدُ الشَّتاتَ فينا نَهْرُنَا الغافي
على رُبى ... الضِّفافِ المُنْبِئه ... !

■ ■ ■

أصواتٌ متأملة :

(صوتٌ أولٌ) :

النِّيلُ قدْ هاجرَ يَنْشُدُ "المواويلَ"[1] القِصَارْ
في ذكرياتِ زَهْرةِ الفصولْ ... يَرثي الرَّبيعْ
يُلَمْلِمُ الأوراقَ من شُجَيْرةِ الخريفِ
علَّها تزولْ
وتنْبُتُ الوريقاتُ الخُضْرُ في

(١) إشارة لديوان الشاعر "مواويل النيل المهاجر" .

جبينِ ماءِ النيلِ حَين ترْجِعُ الحياةُ
من جديدْ
تدبُّ خَفْقًا بالضحى الوليدْ
تلْتئمُ الجراحُ بالمصبِّ حِيْنَ يقْطُرُ النبعُ الجليدْ
ينْصَهرُ الحديدْ ...

■ ■ ■

(صوتٌ ثانٍ) :

يا "وَرْدَةً في النيل قد خبَّأتها"[1]
قد اعتلى الوجْهَ الشَّفيفَ غَيْمةٌ سوداءْ
يُرقْرِقُ الرجاءْ
بغيرِ ساقٍ يبْغِي عَيْنَ الماءِ في حَياءْ
فأينَ كُنْتَ يا غمامْ
حينَ انثنى القوامْ
"فكلُّ غيمٍ شجْرَةٌ ... وكلُّ جُرْحٍ كالهِلالْ"[2]
يا وِرْدَةً بلا أريجٍ ترْتجي الحياه
شَطْرَ الحيَاه
ولا نَجَاه

■ ■ ■

(١) إشارة لديوان "وردة كنت في النيل خبأتها"
(٢) وقلها للشاعر حسن فتح الباب .

(صوتٌ ثالثٌ) :

يا "سُلَّمًا على هَشِيْم"[١] النَّارِ والريْحِ السّمومْ
يبْغي النجاةَ ... يبْغي النجومْ
فاشْهدْ بأنِّي صاعدٌ يا ضوءَ في الغيومْ
كي أرْصدَ "النَبْتَةَ" قَبْل أنْ تقومْ
كي أرْقَبَ الصُّبحَ الوليدْ ... وتنْجلي الهمومْ

■ ■ ■

(صوتٌ رابعٌ) :

الفارسُ القديمُ عادَ عاريًا
دون الجوادِ يمْتطي "الأملْ"[٢]
بَصَهْوةِ الرِّياحِ جاءَ مُثْخَنًا
يصَارعُ الجراحْ
على أسنَّةِ الرِّماحْ
و "سَلَّةٌ من المحار"[٣] في يديهْ
إلى عُيونِ ابْنَتِه "مَنَارْ"
فكيفَ لا أغارْ ... ؟ !

■ ■ ■

(١) إشارة لديوان "على سُلَّم من هشيم الرياح" .
(٢) إشارة لديوان "فارس الأمل" .
(٣) إشارة لديوان "سلة من محار" . وكلها للشاعر حسن فتح الباب .

(صوتٌ خامسٌ) :

مَفْغُوْرَةُ الأعْضاءِ "أحْداقي"[١]
أقلّبُ العيونَ في سماتِ الجوعِ
الخيلُ لاكَت الزَّبدْ
غابتْ شمُوْسُ جَيْشِنَا العَربي
والسَّيفُ مال حَيْنَ مال السُّنْبكُ الذَّهبي

■ ■ ■

(صوتٌ سادسٌ) :

يموتُ في الخَلْقِ الظمَأْ
إذا تهادي الخَطْوُ في الوَطَنْ
تعيشُ في ساعَاتِ نُضْجِها الزُّهورْ
إذا تمايلَ الخريفْ
ودَبَّ في الغصْنِ السُّكَنْ
تَغُوصُ أقْدَامُ الفَرَحْ
"قَوْسَ قَزَحْ"
إذا تَتَراجَعَ الرَّبيعْ
وعادَ طيْفُهُ الغريبْ

(١) إشارة لديوان "أحداق الجياد" للشاعر حسن فتح الباب .

من شُرُفَةِ الزَّمَنْ

وقيْلَ : إنَّهُ "حَسَنْ" .

٢٠٠٨/١٠/٣٠

مقالة

غنائيات الحارس السَّجين

إطلالة أولى على شعر حسن فتح الباب

د. صلاح السَّروي

يمتاز شعر حسن فتح الباب بطاقة غنائية هائلة، وقودها تلك المشاعر الملتهبة وال
المفعم، إلى جانب رؤية اكتشافية بالغة الاتساع والنفاذ . حيث استمد من وضعيته الـ
ومعاناته الذاتية عناصر معنوية ودلالية كثيرة أجج بها هذه الطاقة وارتفع بها إلى
السماء. فهو ذلك الضابط الذي لم يستطع – على خلاف مع متطلبات مهنته – إلا أن
قلبًا حانيًا وروحًا عطوفًا، غير أنه بدلاً من أن يحرر البؤساء والعناة أصبح "سجينًا" مع
ولعله بذلك يجسد مأساة المثقف في العالم الثالث، ذلك الذي ينتمي إلى مصالح الـ
ويضحي من أجلها، ولكنه لا يستطيع أن ينفذ إلى وعيها، حتى إنه يشعر بالغر
ظهرانيها في أحيان كثيرة، فإذا تمكّن من حل هذه المعضلة والتحق بجماهيره إذا
ملاحقته ومنعه وربما يصل الأمر إلى سجنه . ولعل هذه الحالة التي يميزها الاحتشاد و
القتالية هي التي مكنته من طرح قصيدٍ مشبعٍ بالمعنى ومفعمٍ بالعاطفة، غائر في الوجدان
في الوعي، بذات القدر . وهو بذلك يكاد يجمع بين مدرستين شعريتين كبيرتين
الرومانتيكية، والرؤيوية . وهذه الأخيرة هي المدرسة التي عرفت باسم : مدرسة الشعر
أحيانًا، ومدرسة الشعر الحر، أحيانًا أخرى . والتي تقوم تحديداً على محاولة استكناه الـ
واستبار أعماقه والغوص إلى ما دون سطحه الظاهر .

وتتجلى النزعة الغنائية عند حسن فتح الباب منذ أعماله الأولى (من وحي بورسـ
١٩٥٧م وفارس الأمل ١٩٦٥)، حيث تبرز الوظيفة الإنشادية التعبوية المحملة بالعـ

والانفعال التي يقوم عليها القصيد :

"والنيل يردد أغنية
تترقرق : لا تحزن إيزيس
أحمس عاد اليوم فلبى
صيحته جيل تحت الأعلام
يحمل - منصوراً - قربان سلام
خبزاً لم يمزج بدماء الثأر
وتفيض على الوادي الأصداء
دافقة دافئة خضراء
من خفقات الأيدي السمراء " (فارس الأمل ص ٤٠) .

فهذا الاستنطاق للطبيعة، بما يجعل النيل يردد الأغاني، وهذا التجذير التاريخي للحالة النضالية الراهنة المتمثلة في استدعاء أحمس وإيزيس، وهذا التعدد في الوصف "دافقة دافئة خضراء" .. الخ وأيضًا استخدام أدوات النداء والنهي، كل هذه عناصر تهدف إلى التعبير عن حالة الانفعال ونقل التوهج العاطفي . وهو ما يجعل من القصيدة أنشودة حماسية ذات طابع ملحمي واضح . ولا أقصد بالملحمية هنا ذلك النوع الكلاسيكي المعروف، ولكن أقصد به هذه المشاعر الفياضة المفرطة التي تحتاج - لكي يتم توصيلها إلى متلقيها - إلى تخييل يقوم على التضخيم والتكبير ومجاوزة المعقول .. انظر إلى هذه العبارة .. "وتفيض على الوادي الأصداء / دافقة دافئة خضراء / من خفقات الأيدي السمراء" . ففيضان الأصداء على الوادي هنا لا يمكنه إلا أن يكون مجازيًا متصوراً ومتخيلاً، وكأن صيحة أحمس التي بثها منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام قد ظلت باقية محفوظة إلى أن بان أثرها اليوم، فقد لباها جيل ثائر

"تظلله الأعلام" ، بل إن أصداء هذه الصيحة تفيض على الوادي وتحتل مسامع أبنائه من ذلك تتخذ صفات ملموسة ومرئية وهي التي تنتمي إلى حقل السمعيات، بما يعني ا والسبوغ والهيمنة الكاملة، وقد كان لخفق أيادي الثوار الأثر الأكبر في بث الحياة فيها حيويتها التي لم يقض عليها طول الأزمان، فأصبحت دافقة دافئة خضراء .

وتتواصل هذه النزعة وإن كان بدرجات أقل، بالطبع، في باقي أعمال حسن فتيح الشعرية .. وصولاً إلى أخر أعماله "على سلم من هشيم الرياح" (٢٠٠٦) عندما يقول :

" ما الذي تشتهي ؟
فلسطين تحمل أغلالها
ويبكي على كتفها الصليب
ويحني الصنوبر والغار أغصانه كي يمر الشهيد
طريق العذابات يبكي ويدمي
بلحم يسوع صريعًا .. (ص ١٠) .

حيث نلاحظ هنا تواصل استخدام ذات التقنيات المؤدية إلى هيمنة النزعة الغنائية غلبت عليها مسحة رثائية واضحة، بعد أن ضاق به الحلم وقصرت به المآلات فإذا به لم يشتهي شيئًا، وهو ما نفهمه من هذا الاستفهام الاستنكاري، فلم يعد لديه ما يك يشتهيه، ليس لأنه قد حصل على كل ما يريد، لكن - تحديداً - لأنه لم يحصل على شيء. ففلسطين لا تزال في أغلالها، بل لقد بلغ من مأساوية وضعها أن الصليب الذي على كتفها هو الذي يبكي، ربما رثاء وحزنًا عليها، في صورة كثيفة العناصر بالغة ا والتأثير . فلو قال الشاعر إن فلسطين هي التي تبكي حاملة صليبها، لأصبحت الصورة ع مكرورة أما أن يبكي الصليب، وهو المحمول، فما بالك بمن يحمله . إن رمز الصليب هنا ب موضعة القضية الفلسطينية ، بكاملها، في منطقة المعاناة الكونية اللدنية. فهي بفعل

الصورة تتماهى مع السيد المسيح الذي جسدت نهايته كل معاني النكران والجحود، إذا وضعناها في مقابل دعوته التي تناقض كل ما مارسه ضده أعداؤه . هو الداعي إلى المحبة والوداعة والخير، بينما لا يجابه إلا بالقمع والنكال . كما أن الصورة هنا يمكنها أن تمنح تأويلاً إضافيًا، من زاوية أن الصليب يمكن أن يتماهى مع الوليد الذي تحمله المرأة على كتفها ويبكي، وهو ما يجعل حمل فلسطين لأبنائها البؤساء – الطفل الباكي – ما يشبه القدر المؤلم الذي يمثله الصليب والذي يمثل، إلى جانب ذلك معنى الخلاص والافتداء . إن هذا المعنى الأخير يمكن أن يؤكده الاستطراد المأساوي المتمثل في احترام عناصر الطبيعة من أشجار الصنوبر ونبات الغار لموكب الشهيد .

وكما يبكي الصليب آلام فلسطين المتماهية مع السيد المسيح في الآلم والغاية والمصير، كذلك يبكي طريق العذابات، طريق الآلام ، ويدمي بلحم يسوع الصريع . هكذا تحتشد كل الأدوات التعبيرية لكي تحقق تلك الرؤية الغنائية الأسيانة الملتاعة .

ورغم الفارق الذي نلاحظه بين الرؤيتين – في كل من الديوان الأول والديوان الأخير – حيث ذلك المنحنى الهابط من علياء التفاؤل والروح القتالية الوثابة، إلى وهدة الألم والحزن، وربما اليأس . رغم هذا الفارق إلا أن ما يوحد بينهما هو هذا التوهج العاطفي والتوقد الانفعالي الذي يتوسل بكل الأدوات الفنية والجمالية القادرة على صنع الصورة الشعرية ذات الكثافة المعنوية والدلالية .

إلى جانب هذه الغنائية الواضحة، بطرفيها، الثائر والحزين، توجد نزعة أخرى لا تخطئها العين ولا الواعية، تلك هي الشعرية الرؤيوية التي يصبح فيها الشاعر صنو المتصوف الباحث عن "لؤلؤة المستحيل" وقرين الباحث فيما وراء السطح الظاهر الذي يحاول أن يلمس "قلب الأشياء" . نلمس هذا بوضوح في ديوان "مواويل النيل المهاجر" (١٩٨٧) ، حيث تتحول العناصر والأخيلة من أدوات للتعبير إلى أدوات للتأويل، من أدوات للتأثير إلى أدوات للكشف عن مكنون وحقائق جديدة للأشياء غير مدرجة وغير شائعة .. يقول :

"حبيبي هذه مصر على الأفق أفق
ها هو الحلم على النهر وطن
لم يجف النيل في الوادي
وظل الحب لما يحترق
يا حبيبي هذه مصر أفق" (ص ٤٢)

فإذا وضعنا على فاء كلمة "أفق" الأخيرة في السطر الأول ضمة ستصبح فعل على الأفق أي أنها تظلل الوجود وتهيمن على المشهد أنى توجهنا، وهو ما يط لمعنى جديد للوطن، خاصة في الغربة، عندما يصبح الوطن هو الهُوية الوحيدة ال يبرزها المرء أمام كل من يقابله وأمامه تنمحي كل الانتماءات وتتراجع كل الانتـ إذا وضعنا أسفل الفاء كسرة بمعنى أن تكون الكلمة فعل أمر بدعوة الإفاقة فإنها العبارة التالية لها بنية مفارقة مدهشة إيما دهشة، ففي الوقت الذي تقول فيه الم "أفق"، فإنها تشير إلى الحلم الذي أصبح وطنًا على النهر، وهي هنا تشير إلى أ يحلمان به (أي مصر) في نومهما ويقظتهما قد تجسد أمامهما وطنًا جميلاً على ض وهي صورة تعتمد على بذرة المراوحة بين الحلم والحقيقة، فأيهما كان الحقيقة وأيهما وهل هي (أي مصر) في الحقيقة كما كنا نحلم بها . فلقد بقى الحب فيها لا يغيب و لكي تأتي العبارة الأخيرة .. "ياحبيبي هذه مصر أفق" .. موحية ودالة بقوة، فقبلاً قد جاءت بمثابة القفل على الأغصان – إذا استعرنا بناء الموشحات – فإنها يمكنها مواقعها مع العبارة الأولى فتصبح "أفق" بكسر الفاء وضمها على حد سواء . إن حققه هذا البناء، هو أنه قد خلق وضعية مراوغة قابلة للتأويل والمراجعة الرؤيوية على وجه وأكثر من زاوية رؤية . وقيمة ذلك أنه يثير الخيال ويثري الوعي ويبعث على النظر بغية الكشف من جديد عن حقائق للأشياء التي من فرط ألفتنا بها عدنا لا نـ لا نراها .

وهو أيضًا ما نجده في ديوان "كل غيم شجر – كل جرح هلال" .. حين يقول :

"عجلات الطاحون الأسود
تردى المردة
تودى بالشبح الأوحد
لكن الطاعون
قدر الأقزام المغمورين
لا تجزع
أنصت .. ودع الشجو
فالأرض تدور
تأخذ زخرفها .." ص ٧١) .

إن المهم هنا هو الإشارة إلى هذه الطاقة المعرفية الاكتشافية التي تذخر بها هذه الأسطر، بَدءاً من عنوان الديوان، الذي يكاد يخلق معاني جديدة للغيم وللجرح بقرائن ظاهرة أو خفية، من قبيل أن الغيم ينزل منه الماء فينبت الشجر، مثلاً، أو أن الغيم في تبدياته المتحولة الأشكال تكاد تشبه الأشجار وغيرها من الأشكال، إلا أن إمكانية تحول الجرح إلى هلال، بقرينة المشابهة الخارجية إنما هو التأويل الأجمل والأكثر براعة والذي يمكن أن يحول الجرح من مادة للألم واليأس إلى وحدة جمالية يمكن التأمل فيها والإعجاب بها، بل والاستبشار والفرح أيضًا كما يحدث مع الهلال . وهي نفس الإمكانات التأويلية التي يمكن أن تمنحها لنا تلك الأبيات التالية .. فمن يمت تحت عجلات دولاب العمل (الطاحون) إنما هم العمالقة المردة الذين يموتون ميتة الشرف والإباء، أما الموت بالطاعون فهو موت الجرزان عديمة القيمة والشأن. وعلى الرغم من الطاقة العاطفية العالية في هذه الأسطر – من حيث تمجيد قيم معينة – إلا أن

هذه الطاقة تتوارى أمام هذه المقارنة ذات الطابع المعرفي الاكتشافي . فتأتي هنا وما يليها، إلى أن تصل إلى العبارة الخاتم التي تمثل حصيلة المعنى وآية القطع تدور / تأخذ زخرفها" فيصبح الدوران للأرض بمثابة البشارة والوعد الذي لا يبقى هو عليه من بؤس وظلم وعبث .

ولقد تزاوجت مع هذه الوجهة الشعرية وجهة أخرى تمثلت فيما يمكن تسميته الدرامية، وهي تتناثر في مختلف دواوين حسن فتح الباب، حيث تقوم على تعدد وتجادلها وتحاورها، بما يطرح أبعاداً متعددةً للحالة الموعى بها – تنقلها من كونها خاصة إلى جعلها تحمل خاصية العموم والسيوغ، وهو الأمر الذي نجده في ديوان الجنوب" (١٩٩٨) .. عندما يقول :

أسألكم .. أسألني :
لِمَ أمسى كل صباح أغدو كل مساء
رهن الأحياء ؟
يعلوني الجبل العاتي
ينأى بي الفلك الدوار" (ص ٨٣)

إلى أن يقول :

"من زهرة الصبار فاغما أتى عطر (المسيح)
واغتسلتْ بمائه القروح
لوّح (يوحنا) الوديع للحمام في الغمام
بريشة من دمه المطلول
فأورق الورد العليل

وجمَعتْ (زينبُ) أشْلاءَ (الحسين)

فانتفض الضريح" . (ص ٨٦)

فالسؤال في الفقرة الأولى يستتبع بالضرورة مسؤولاً أو سامعًا، ومن الممكن أن يكون هذا المسؤول هو ذات الشاعر نفسه حيث يشكو لواعجه وآلام ضعفه وغربته . إلا أن الفقرة الثانية تكاد تمثل صوتًا لشخص آخر جديد، يأتي كمن يواسي آلامه ويحمل له البشارة فهاهو عطر المسيح وتلويحة يوحنا وإخلاص زينب وحنانها . إن استدعاء أبطال التاريخ وسير الأنبياء إنما يستمد أهميته من كونه يحيل إلى علامات قارة في الوجدان والوعي الإنسانيين، بما يحمله من دلالات جاهزة ومعاني مستقرة واضحة، وعندما يتم هذا الاستدعاء فإنه يمكن تحميلها، دون جهد كبير، بمعاني جديدة . كما أنها تجعل الحالة الراهنة في اشتباكها مع القديم، موحية بسرمدية المعاناة وتاريخيتها . ومن هنا تصبح الآمال المعقودة على الخروج منها أكيدة في ضوء الخبرة التاريخية المستدعاة والتي تتمتع باليقين الكامل والمطلق في صحتها .

هكذا تكتمل عناصر وملامح الفعل الشعري عند حسن فتح الباب والتي تشي بمدى غنى وثراء هذا الشاعر الرائد والمجدد على حد سواء .